المشرق

يوبيل

كلية مار يوسف الذهبي

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعيّ

جاء في سفر الاحبار (٢٥: ١٠) قول الرب لبني اسرائيل عن لسان عبده موسى الكليم: «قدّسوا سنة الخمسين» فقام شعب الله المختار بما أمره الرب وجعلوا تلك السنة يوبيلًا اي سنة افراح وسرور شاركهم فيها كلّ المبؤوسين حتى العبيد والغرباء.

ذلك اليوبيل الدينيّ ورثتهُ كنيسة الله الجامعة من كنيسة الشعب الاسرائيلي فتراها تحتفل بهِ احتفالًا رائعًا في بعض السنين يهتزّ لجلالهِ العالم الكاثوليكي فيتقاطر الى اورشليم الجديدة رومية العظمى ليجدّد حياتهُ الروحيّة عند قبرَي هامتَي الرسل ويشدّد اواصر ايمانهِ بقرب الصخرة البطرسيّة التي لا تقوى عليها ابواب الجحيم منتعشًا ببركة

إمام الاحبار الذي لا يزال بطرس حيًا في شخصهِ الكريم

*

وقد استعارت الشعوب والجماعات بل بعض الافراد من الذوات هذهِ العادة الحسنة ليذكروا في بعض الحقب من حياتهم الشعبية او الشخصيَّة ما اصابوهُ من النعم وازدان بهِ تاريخهم او ما باشروهُ لخير وطنهم وخلَّفوهُ من المآثر الطيّبة . فتنعش الذكرى قواهم وتدفع بهم الى مضاعفة همّتهم في خدمة وطنهم بالاعمال الشريفة

فما كان أحرى بكليَّتنا الجامعة أن تقف هنيهةً في سيرها بعد خمسين عاماً لتلقي نظرها على هذه الحقبة الطويلة فتذكر الحلبة التي جاهدت فيها جهادًا صالحًا ليس لمقاتلة الاعداء بل لمناهضة الجهل والضلال ولتهذيب الناشئة الوطنيَّة لتوازرنا في خدمة بلادها وتعزيزها شؤون الهيأة الاجتماعيَّة التي تقوم على ركني الدين والعلم

ومن ثمَّ رأينا ان نخصّص قسماً من عدد مجلّتنا الحاضر لذكر كليّتنا ليحيط بها علماً قرَّاؤنا الكرام فيشاركونا بالشكر لله عمَّا أنعم عليها في شوطها هذا ويرفعوا الى عزَّتهِ اكفَّ الدعاء لتثابر على خطّتها في خدمة الدين والوطن بل يزيد رؤساؤها واساتذتها همَّةً في ما انتدَبهم الى عملهِ عزَّ وجلَّ وفي تحقيق آمال الجمهور من مساعيهم الحسنة . وسنقسم هذه المقالة الى ابواب مختلفة شاملة لموادّها

١ تاريخ أبنية الكليَّة

سبقت كليتنا مدرسةَ غزير التي فُتحت اوَّلًا سنة ١٨٤٣ لتهذيب الاكليروس الشرقي من سائر الطوائف الكاثوليكية . وما لبث ان طاب الينا نزلاء الشام من الاوربيين ثم الاهلون من الوطنيين ان نلحق بتلك المدرسة قسماً لتهذيب اولادهم فتمَّ الامر نحو السنة ١٨٥٠ . وكان عدد وافر من التلامذة الخارجيين من بلدة غزير ونواحيها يُقبلون على دروس تلك المدرسة التي اشتهرت في انحاء لبنان وجهات الشام ومصر ومنها خرج في مدَّة السنين الاثنتين والثلثين التي ثبتت فيها (١٨٤٣ — ١٨٧٥) عدد مذكور من رجال الدين والدنيا الذين شغلوا في الوطن وخارجاً عنهُ المناصب الشريفة بينهم البطاركة والاساقفة الاجلَّاء والكهنة والرهبان والقناصل وعمَّال الدول واعيان الوطنيّين والاجانب ولم يزل يذكرها بالخير كل من تخرَّجوا فيها

على انَّ مدرسة غزير لوقوعها في الجبل بعيدًا عن مراكز الاشغال ولضيق ابنيتها ما كانت لتفي بمرغوب منشئيها لاسيما اذ رأوا انَّ الارسالية الاميركية اخذت في بيروت تزداد نفوذًا وجاهًا بكليتها البروتستانية التي كان يتردَّد اليها عددٌ من ابناء الكاثوليك فيمارسون رتبها الدينيَّة ويعدلون شيئًا فشيئًا عن دين آبائهم المستقيم الى الاضاليل البروتستانيَّة وحريَّة الضمير. فكان ذلك الداعي الاكبر الى نقل مدرسة غزير الى بيروت بعد ان تجوَّل منشئها الاب امبروسيوس مونو مدَّة سنتين في انحاء اميركا يلقي المحاضرات عن الشرق ويجمع حسنات المحسنين للغاية المذكورة

كان ابتياع الاملاك التي في مكانها بُنيت الكلية عن يد رجل الهمَّة والنزاهة المرحوم درويش تيَّان وهي تبلغ مساحتها ١٧،٠٠٠ متر كان معظمها مزروعًا بالتوت مع بعض الابنية الصغيرة اللاحقة بها وضمنها سبع آبار ماء مشروب فهُدمت الابنية وبوشر بالعمل في اوائل تشرين الثاني من السنة ١٨٧٤ بعد ان [illegible] دينيَّة لوضع الحجر الاوَّل حضرها ممثلا الكرسي الرسولي والدولة الفرنساويَّة. وكان الرؤساء استمدُّوا من الباب العالي بواسطة سفير فرنسة فرمانًا لمعهدهم الجديد الَّا انَّ احوال الاستانة في ذلك العهد لم تسمح بالحصول عليهِ فتمَّ العمل قبل الفوز بهِ بحماية القنصل الفرنساوي الطيّب الذكر المسيو روستان وتساهل واليَي سوريَّة محمد حالت باشا واسعد باشا خلفهِ

وكان مهندس ابنية الكليَّة احد الآباء اليسوعيين الذي عُرف سابقًا ببراعتهِ الفنيَّة وهو الاب فرنسيس كسفاريوس پَليو (Fr.-X. Pailloux) فتولَّى هذا العمل الكبير بنشاط غريب وانتهى منهُ باقلَّ من سنتين. واذ لم يبلغ بالحفر الى الصخر استعاض عنهُ بركائز قويَّة مجبولة بالملاط الفرنجي وجعل البناء على طول ١٠٣ امتار وعرض ١٨ مترًا وزانهُ براجهة ذات تقاطيع وخطوط جميلة مع بساطتها كما يليق بمعهد رهباني والبناء على ثلث طبقات تنتهي الطبقة العليا بشُرُفات لطيفة على شبه التصور. ومدَّ على جانبيهِ جناحين في طول ٥٧ مترًا تتوسَّط الكنيسة بينهما على طول ٥٠ مترًا في عرض ٢٠م وعلوّ ١٧ م. وهي ثلثة اسواق على طراز شرقي جامع بين الطرازَين المغربي والبوزنطيّ يسندها ١٥٠ عمودًا من الرخام الوطني المجلوب اليها من مقطع دير القلعة الذي منهُ أُخذت عواميد هيكل جوپيتر البعلبكي في ذاك الجيل. وأُفردت

بين الابنية وفي مقدَّمة الكلية وفي المرتفع الذي وراءها سبع ساحات لراحة التلامذة وألعابهم الرياضيّة . ومع رحب هذه الابنية ما عتَّمت ان ضاقت على الطلبة الوافدين الى المدرسة . وكان طابقا جناحيها بقيا دون نجازهما فأتمَّهما الرؤساء سنة ١٨٨٢

وفي تلك الاثناء انتدبت الدولة الفرنسويَّة رسالتنا الى ادارة مكتب طبي فألحقت بالكلية بنايةٌ جديدة في جنوبيّها خُصَّت بالدروس الطبيّة فجُهِّزت معاهد مختلفة لكل فروعها من طبّ وجراحة وصيدلة ومعالجة كهربائيّة

وبعد زمن قليل سنة ١٨٨٥ تبرَّع احد المحسنين بمبلغ من الدراهم تمكّن رئيس المدرسة من اقتناء الاملاك الواقعة غربيَّ المدرسة فبُنيت فيها مدارس مجانيَّة لتعليم اولاد العامَّة اللغتين العربيّة والافرنسيّة ومبادئ العلوم وأُقيم فوقها معاهد دروس للكلية . وبُني لمستودع ورق المطبعة ولاشغالها المختلفة بناء خاصٌ كانت اليه في حاجة ماسَّة

ثمَّ اتَّسعت دائرة اشغال المدرسة بنموّ عدد الطلبة وانشاء فروع جديدة للتعليم وبحضور كهنة ودارسين من مدارس اوربّة لينقطعوا في كلّيتنا الى الدروس الشرقيّة . فلم يرَ ارباب الكلية بُدًّا من تشييد معهد جديد ذي طابقين بُني في مكان بقايا من ابنية قديمة كانت مستودعاً لورق المطبعة ولتعليم الموسيقى

وفي السنة ١٩٠٥ بعد انشاء المكتب الشرقي اتَّسعت مكتبة الكليّة وزاد عدد تآليفها زيادةً لم تكن في الحسبان فعزم رئيسها الاب هنري غراسيان ان يفصل المكتبة الشرقيّة عن المكتبة الغربيّة فخصَّ بهذه الاخيرة مناماً واسعاً كان للطلبة الاكليريكيين وابتنى لهم مناماً جديداً فوق درسَي التلامذة الداخليين خلف الكنيسة . فبقيت المكتبة القديمة كلّها للمطبوعات الشرقيّة التي أُلحق بها بعد خمس سنين ثلث غُرف من الغرف التي بازائها

وفي العقد الثاني من القرن الحالي رأت عمدة الدروس الطبيّة ان البناية التي احتلّتها سنة ١٨٨٢ أصبحت حرجةً لا تفي بحاجات ذويها فحدا بهم الامر الى استنداء كرم محبي ترقّي الشرق وصرف ذخيرة من مالهم الى اشتراء الاملاك الواقعة على ممرّ طريق الشام قريباً من مقبرتَي الروم الكاثوليك والموارنة الجديدتين . ووكلوا الى حضرة الاب يوسف ماترن ان يتولَّى هندسة مدرسة طبيّة واسعة يُقام لكل فرع منها

معهده الخاص فوُضع حجرُها الاوَّل في ٢١ تشرين الثاني برونق عظيم وحضور ارباب الامر من دولتي فرنسة وتركيّة ولجنتَيها الفاحصتين وكان يرئس الحفلة الدينيّة نيافة القاصد الرسوليّ مع ممثلي كل الطوائف الكاثوليكيّة. ولم يكد يتمّ على هذه الحفلة سنة كاملة حتى دُشّنت المدرسة بأُبهة شبيهة بالعام السابق في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٣

وكان رؤساء المدرسة يريدون ان يلحقوا بها مستشفًى كبيرًا استحضروا لهُ ملكًا واسعاً على مسافة نحو ميل منها شرقيَّها فأتت الحرب الكونيّة فحالت دون المباشرة بهِ ووضع الاتراك الايدي على جميع موادّهِ

ولمّا وضعت الحرب اوزارها كان اوَّل فكر الرؤساء أن يحققوا تلك النيّة الّا ان ضيق يدهم كان يحول دون رغبتهم لولا كرمُ فخامة الجنرال غورو المفوَّض السامي على الانتداب الافرنسي الذي تبرّع بما بقي لديهِ من ماليّة الانتداب

فدُشّن هذا المستشفى في العام الماضي بعد ان قام بهندستهِ حضرة الاب ماترن مع رجال الفنّ فاستوفوا كل لوازمهِ وهذه السنة الثانية لتمشية اشغالهِ

وفي الزمن عينهِ أُقيم معهد آخر في دائرة مدرسة الطبّ أُلحق بها لطبابة الاسنان ولفنّ التوليد فنجز مع المستشفى. وقد خصَّت اللجنة المقامة لإكرام باستور قسماً من المال الذي جمعتهُ تعزيزًا لمكتشفاتهِ لاقامة مستشفى خاص بمعالجة داء السرطان. وارباب المدرسة قد باشروا بهذا البناء في جوار المستشفى الكبير وسينجز قريباً ان شاء الله

أمّا ابنية المعهد الطبي القديمة المجاورة للكلية جنوبيَّها فخُصَّت بمدرسة الحقوق التي انشئت سنة ١٩١٢ ثمّ أُلحق بها مدرسة الفنون الهندسيّة مع مكتب اعدادي لكليها

أمّا الكلية فرأت ايضاً منذ عامين حاجتها الى نادٍ واسع او مسرح مبنيّ على اصول النوادي العصريّة تُقام فيهِ الحفلات المدرسيّة وتمثَّل فيهِ الروايات الادبيّة يحضرها جمهور من اهل المدينة. فما لبث ان خرج هذا الفكر الى عالم الوجود بهمّة رئيس كلّيّتنا حضرة الاب شانتور وحذاقة المهندس البارع فؤاد افندي خوري

واليوم يشتغل جناب المهندس ببناء آخر ذي ثلثة طوابق فوَّض اليهِ حضرة

الرئيس تشييده لحاجات المدرسة المستجدّة من مدارس ودروس وقاعات اشغال مختلفة

٢ دروس الكليّة وامتيازاتها

لما تمَّ بناء كلية القديس يوسف البيروتيّة في خريف السنة ١٨٧٥ انتقل طلبتها من قرية غزير الى حاضرة بيروت فاستُئنفت الدروس. ولم تختلف في السنين الاولى عن دروس مدرسة غزير إلّا انَّ المدرسة كانت نالت من فضل الكرسي الرسولي بوساطة رئيسها العام الاب امبروسيوس مونو اسم الكليّة الرسمي. وهي اوّل مدرسة نالت ذلك في الشرق. وكان شاع هذا الاسم قبلها عن الكليّة الاميركانيّة التي كان اصحابها يدعونها «بالمدرسة السوريّة البروتستانية» (The Syrian Protestant College) الى ايّام الحرب فنالت الاسم رسميًّا بعد الحرب كما روت في مجلّتها «الكليّة» وسبق لنا ذكرهُ. واليوم قد اخذ الكَتَبة يفرقون بين اسمَي الكليّة والجامعة وهو اصطلاح حديث

وكانت دروس كليتنا تتناول فضلًا عن درس اللغات اللاتينية والافرنسية واليونانية والعربية والانكليزيّة علوم الفلسفة والرياضيّات والطبيعيّات والكيميا. وكان طالبو الكهنوت يتفرّدون مدّة ست سنوات الى درس الفلسفة واللاهوت النظري والادبي والحقّ القانوني وتفسير الاسفار المقدَّسة وعلم العبرانيّة مع درس لغاتهم الطقسيّة

فرفع الاب ريمي نورمان خلَفُ الاب مونو سنة ١٨٨١ عريضةً الى مقام الحبر الاعظم لاون الثالث عشر يطلب من قداسته ان تمنح كلية بيروت طلبتها الاكليريكيين شهادتي الأذونيّة ثم الملفنة اي الدكتوريّة في الفلسفة واللاهوت مع الامتيازات المتعلّقة بها. فاجاب إمام الاحبار الى طلبتهِ بعد ان تحقّق اهليّة المدرسة واساتذتها بذلك. فكان اوّل من حظي بهذا الشرف احد افاضل الرهبان البلديين الطيب الذكر الاب مبارك سلامة المتيني فتسلّم شهادة الملفنة في حفلة شائقة بحضور نيافة القاصد الرسولي ولفيف المعلمين والتلامذة سنة ١٨٨٣

وكذلك المكتب الفرنساوي الطبي بعد خروجهِ من قاطات الطفوليّة في السنين

الاربع الاولى تنظّمت فيه الدروس وأُجريت الفحوص كالمعاهد الاوربيَّة الكبرى فمنحت الدولة الفرنسويّة طلبتهُ شهادةً لم ترضَ بها الدولة العليَّة الّا بعد امتحان شفاهي قدّموهُ في الاستانة مدَّة عشر سنين (١٨٨٨–١٨٩٨) ثم اتّفقت الدولتان الفرنسويّة والتركيَّة على ان ترسل كلتاهما لجنةً تشتركان بالفحص ومَنح الشهادة فجرى ذلك منذ السنة ١٨٩٩ . وكانت دروس المكتب تترقّى شيئاً فشيئاً حتى جارت المكاتبَ الاوربية الراقية فصار تعليمها يجمع بين علم الابدان وتركيبها وعلم تركيب العظام وعلم قيام الحياة اي الفيسيولوجيا والطبابة الباطنة والجراحة وتركيب الادوية وعلوم النبات والحيوان والجراثيم المعدية وعلم الصحة والكيميا والطبيعيات والتوليد والصيدلة وعلم علاج الكَلَب والكهربائيَّة الطبيَّة . وقد سبق لنا القول انَّ لغة التدريس لسائر العلوم العصريَّة انَّما كانت الافرنسيَّة لنقص اللغة العربية عن تأديتها

وكانت الكلية تمنح اوَّلا شهادةً من رؤسائها لدارسيها العلمانيين ... الدولة الفرنسويَّة ان تمنح دارسيها العلوم الثانويّة المدرسيَّة اجازةً كاجازة الباكلوريّة الفرنسويّة . ويجوز اليوم للطلبة ان ينالوا اجازة الكليّة او اجازة الدولة كما يشاؤون فيتمتّعون بانعاماتها

ومن الدروس العليا التي استجدَّت منذ عهد حديث مدرسة الحقوق أُنشئت سنة ١٩١٣ بمساعي كليَّة ليون التي أشركتها بامتيازاتها واخذت على نفسها تجهيزها بسائر لوازم التعليم حتى تجاري كل رصيفاتها الاوربية . على ان تدبير هذه المدرسة كتدبير المكتب الطبي تبقى ازمَّتهُ في ايدي الآباء اليسوعيين . أما دروس الحقوق فتشتمل على درس الحق المدني والفقه الروماني وقوانين الاحكام والجزاء والتجارة والاقتصاد الدولي والفقه الاسلامي بالعربية

وأُلحق بمدرسة الحقوق سنة ١٩١٩ مدرسة هندسيَّة كانت دروسها محصورةً اوَّلا في صفّ واحد وهي اليوم ثلثة صفوف تتناول كل العلوم النظريَّة والعمليَّة التي يحتاج اليها المهندسون . وفي المدرسة معامل مجهَّزة بكل الادوات المختصَّة بالاعمال الهندسيَّة . واذا نال الطلبة شهادة المدرسة لهم ان يتلقَّنوا في مدرسة ليون المركزيَّة معارف فنيَّة اختصاصيَّة . والمدرستان كلتاهما اي الحقوق والهندسة تدوم دروسهما ثلث سنين

فبهذه العلوم العليا الخمسة اي الفلسفة واللاهوت والطبّ والحقوق والهندسة امست كلّيّة القديس يوسف جامعة كصيفاتها الاجنبيّة. وممّا خُصّت به قبل الحرب مكتبٌ شرقيّ لتعليم اللغات الشرقيّة القديمة اي العربية والسريانية والعبرانية والحبشيّة والقبطية مع درس الآثار اليونانية والرومانية. وقد تخرّج فيها عدّة علماء يعلّمون اليوم اللغات الشرقيّة في جامعات اوربّة واميركة فاتت الحرب واضطرّتنا الى الغائه ربما تلجئ الظروف الى استئنافه. وانما منشورات المكتب لا تزال تظهر في اوقاتها وقد بلغت اليوم عشرة مجلّدات ضخمة

٣ فروع الكلّيّة

﴿المدرسة الاكليريكيّة﴾ هي الاصل الاوّل للكلّيّة اليسوعيّة. كان انشاؤها في غزير سنة ١٨٤٣ ضئيلةً سقيمةً شأن اعمال الله الخطيرة. وها قد مرّ عليها ٨٢ عاماً فتكون سبقت كلّ المدارس الاكليريكية المنشأة بهمّة المرسلين في الشرق اعني قبل مدرسة الدومنيكان في الموصل والكبوشيين في الاستانة والآباء البيض في القدس الشريف. وانما خلفت مدرسةً اكليريكيةً قديمة فتحها اليسوعيّون في القرن الثامن عشر في لبنان في عينطورا أداروها نحو خمسين سنة قبل الغاء رهبانيّتهم سنة ١٧٧٣

وكانت الغاية التي دعت الاب مكسمليان (منصور) ريلّو الى فتح مدرسة غزير الاكليريكيّة تهذيب اكليروس شرقيّ لكل الطوائف الشرقية يتشرّب المتخرّجون فيها روح الكثلكة الصميم مع احرازهم للعلوم الكهنوتية الراقية. وكان الآباء المتولّون لهذا العمل يعتبرونه كأخصّ واشرف مشروعاتهم في خدمة الكنائس الشرقية مؤمّلين من امتزاج ابناء الطوائف المختلفة ان يشملوا بمحبّتهم سائر اهل وطنهم ويسعوا في توحيد كلمتهم وتأليف قلوبهم وتوثيق عُرى ارتباطهم بالكرسي الرسوليّ

وقد أفرز للاكليريكيين معاهد منفردة ونظامٌ خاصّ يجرون عليه مدّة الاثنتي عشرة سنة التي يقضونها عادةً في المدرسة لا يمتزجون بالطلبة سواهم الّا في المدارس. وفي زمن دروسهم يتدرّبون على سائر اعمال دعوتهم من مباشرة الرياضات التقويّة

وعلم الوعظ وتعليم الصغار الواجبات المسيحية وخدمة الفقراء

ولمَّا نُقلت المدرسة من غزير الى بيروت لازمَ الاكليريكيون فرائضهم الخصوصيَّة تحت نظارة مرشدهم القائم بتهذيبهم وسائر امورهم · وقد انتهزت الرهبانيَّتان المارونيَّة اللبنانيَّة والباسيليَّة الشويريَّة فرصة وجود مدرسة بيروت الاكليريكيَّة فنتحت كلتاهما للشبان من رهبانهم ديرًا يأوون اليهِ ويقومون فيهِ بممارسة قوانينهم ويحضرون دروس الكلية مع الاكليريكيين

واليوم قد بلغ عدد الذين خرجوا من المدرسة الاكليريكية فتفرَّغوا لخدمة طوائفهم نيِّفًا واربعمائة اكليريكي بينهم ثلثة بطاركة و ٢٤ اسقفًا والباقون كهنة وقد توفي من مجموعهم نحو ١٣٠ اسقفًا او كاهنًا

وقد مرَّ على المدرسة الاكليريكية ايَّام عصيبة احتار الرؤساء في اعاشة طلبتها كما جرى في الحرب السبعينيَّة بين فرنسة والمانية (سنة ١٨٧٠—١٨٧١) وفي الحرب الكونية الاخيرة مع التلامذة الذين تعذَّر تسفيرهم الى اوطانهم

وللمدرسة الاكليريكيَّة منذ السنة ١٩٠١ نشرةٌ خصوصية ظهر منها اربعة عشر عددًا تُدوَّن فيها الاخبار المنوطة بالمدرسة ومآثر تلامذتها الحاضرين والغائبين مع الرسائل التي يكتبها القدماء وتراجم المتوفَّين منهم

وممَّا يُذكر لقدماء المتخرِّجين في المدرسة فيُشكر وضعُهم لعدد عديد من التآليف الدينية والعلميَّة والادبيَّة التي نشروها في مواطنهم فذكرناها في لائحة كتبة الكلية التي جدَّدنا طبعها مؤخرًا

﴿المدرسة الاهلية﴾ هذه المدرسة لتهذيب الناشئتَين الوطنيَّة والاجنبيَّة كان اوَّل انشائها في غزير سنة ١٨٥٥ فأُفرد جانبٌ من ابنية ذلك الدير للداخليين منهم قسمٌ وقسمٌ آخر للخارجيين · فاقتضى وجودهم تشييد معاهد جديدة وتنمية عدد المعلّمين من آباء واساتذة علمانيين واصبحت ارساليَّتنا السوريَّة في عُهدة الآباء الفرنسويين بعد ان كان يرئسها الآباء الايطاليُّون فصارت اللغة الفرنسويَّة لغة التدريس بدلًا من الايطالية فاتَّسعت شهرة مدرسة غزير حتى في البلاد الاجنبية · وقد بلغ عدد الدارسين في اواخر سني المدرسة قبل انتقالها الى بيروت نيِّفًا وثلثمائة طالب · وكان التلامذة يقبلون الى تلك المدرسة من كلِّ انحاء سوريَّة ومن فلسطين ومصر والاناضول · وكان الخارجيُّون

يأتون من القرى المجاورة فيبيتون عند اهل غزير ويرجع بعضهم الى اهله يوم السبت مساء الى صباح الاثنين

ثمَّ صار للمدرسة الاهلية المقام الاوَّل لمَّا نُقلت الى مدينة بيروت فكان عدد الداخليين في سنتها الاولى ٩٨ طالباً والخارجيين ١٦٨ وفي السنة الحالية بلغ عدد الداخليين ١٩٦ يضاف اليهم الاكليريكيون ٦٣ وعدد الخارجيين ٤٨٠ فيكون مجموعهم ٧٣٩ طالباً بينهم ١٩٥ يدرسون الدروس التهذيبيَّة الراقية والباقون الدروس الثانويَّة العامَّة. امَّا من حيث اديانهم وطوائفهم فقسمهم الاكبر من الكاثوليك: الارمن (٢٧) الروم الكاثوليك (١٢١) السريان (١٦) الكلدان (٢٠) اللاتين (٦٧) الموارنة (٣١٧) مجموعهم ٥٦٨ . والقسم الآخر نصارى غير كاثوليك: الارمن غوريون (٣) البروتستانت (٤) الروس الارثذكس (١) الروم الارثذكس (١٣٠) وعهم ١٣٨ . ثمَّ غير النصارى: الدروز (٧) الموسويون (١) المسلمون (٢١) = ٢٩

والعناية الكبرى في هذه المدرسة مصروفة الى تهذيب طلبتها دينيًّا وادبيًّا. وانَّما تُترك الحريَّة التامَّة لغير النصارى في مذاهبهم الدينيَّة . امَّا الكاثوليك فانَّ الآباء لا يدَّخرون وسعهم في تأصيلهم بروح الدين والتقى ودفعهم الى المواظبة على الاسرار المحيية ولهم الاخويَّات المربيَّة لمن امتاز بينهم بتديُّنه وحسن سلوكه

وللمدرسة الاهليَّة محافل ادبيَّة منها للغات الاوربيَّة ومنها للعربيَّة تُقسم الى محافل لغويَّة ومحافل بيانيَّة لها جلساتها النظاميَّة وحفلاتها العمومية ومنها يُتَّخذ غالباً المشخِّصون للروايات التمثيليَّة في بعض مواسم العام التي يُدعى اليها وجوه البلد واهل التلامذة

ولا تُهمل المدرسةُ تلامذتها بعد انتهائهم من دروسهم فتدعوهم الى الجمعيَّات التقويَّة والخيريَّة. وتخصِّص للبعض غرفاً لدروس ليليَّة واجتماعات ادبيَّة يتباحثون فيها عن العلوم الادبيَّة والاجتماعيَّة ويلقون المحاضرات العلميَّة ولهم هناك مكتبة غنيَّة بالكتب والمجلَّات التي يحتاجون اليها للتعمُّق في ابحاثهم

﴿ المكتب الطبي ﴾ كان انشاؤُه سنة ١٨٨٣ باتفاق رئيس الرسالة اليسوعية مع ارباب الحكومة في فرنسة التي كان يرئسها وقتئذٍ لاون غامبتَّا ويرئس وزارتها جول فرّي. وتوسَّط في هذا الاتفاق قنصل فرنسة العام في سوريَّا المسيو بتريغرنيو

ومعتمدها في تركيَّة المسيو دي تورسي. فرضيت الجمهوريَّة الفرنساويَّة بان تخصص لمعلمي المكتب وأشغاله في كلّ سنة ٩٩٠٠٠ فرنك بشرط ان تكون في عهدة الآباء اليسوعيين يديرها احدهم بصفة كنشليار. ففُتح في تلك السنة وكان عدد معلّميه اربعة وتلامذته احد عشر. ثمَّ اتسع نطاقهُ وشُفع بعلم الصيدلة سنة ١٨٨٩ ولم يزل يترقّى سنةً بعد سنة حتى بلغ عدد معلّميهِ في سنة الحرب اثني عشر اربعة منهم يسوعيُّون يضاف اليهم عشرة رؤساء اشغال في علاج المرضى وكان عدد الطلبة ٣٠٥ للطبّ و ٥٠ للصيدلة. وفي السنة ١٩١٣ انشئ مكتب لعلاج الكلَب عُهد تدبيره الى احد الآباء حضرة الاب دي ڤراجيل

وبطلت المدرسة الطبيَّة مدَّة الحرب الكونيَّة لكنَّ الدولة التركيَّة سنة ١٩١٦ نقلت اليها مدرستها الطبية الدمشقية وانتفعت بما وجدتهُ في مكتب بيروت من المعاهد والادوات وكان التعليم بأمرها باللغة التركية

ولما انتهت الحرب قبل دخول الدول المتحالفة فكَّرت عمدة المدرّسين التركيَّة في نقل اثمن الادوات والتجهيزات الطبيَّة الى الاستانة فاودعتها الصناديق ونقلتها الى المحطَّة فلم يسمح الوقت بتحقيق نيَّاتها وعاد الآباء والمعلّمون بعد اشهر الى اشغالهم وتدبير دوائرهم المختلفة

ولمدرسة الطبّ المكاتب والمتاحف والمعاهد العلميَّة الجليلة فانَّ مكتبتها الطبيَّة تحتوي نحو ٣٠٠٠٠ من التآليف الطبيَّة والمجاميع الطبيَّة النادرة. ولها حديقة نباتية كبيرة جامعة لضروب النباتات الاهلية والغريبة ولاسيما الطبية(١ انشأها حضرة الاب اليسوعي لويس بولوموا فبلَّغها برعايتهِ وعنايتهِ الغايةَ في الرقي والحسن فتأخذ بمجامع ابصار الذين يزورونها

وفي المدرسة مجموعة ثمينة من حشائش سوريَّة في ١٥٠ مجلَّدًا أهدى قسماً منها المكتبَ الطبيّ الحشائشيُّ المرحوم مسيو بلانش (Mr Blanche) قنصل فرنسة سابقاً في اللاذقية

وفي هذا المكتب مجموعة من الظرّان المنحوت والمصقول الراقي الى عهد القبائل الاولى التي سكنت سواحل الشام جمعها الاب رينه داريب (P. R. Desribes).

١) اطلب وصفها في المشرق ١٦ [١٩١٣] : ٢٧٧-٢٧٨

ومثلها مجموعة أخرى في الكلية عُني بجمعها حضرة الاب زُموفن وبعض الرهبان

وفي المكتب عينهِ متحف يشتمل على عـدَّة آثار من المواليد الثلاثة اي المعادن والنبات والحيوانات. وخصوصاً على أمثلةٍ شتى من تشخيص الجسم البشري واعضائهِ وتصوير عللهِ كالامراض الجلديَّة وامراض العيون الخ

وفيهِ ايضاً معهد للادوات الكهربائية المناسبة للدروس الطبيَّة يتولّى ادارتهـا حضرة الاب موريس كولنجت الاختصاصي

وقد كان عدد دارسي الطبّ في السنة الماضية ١١٧ تلميذاً منقسمين بين السنين الخمسة على حسب ترتيب دروسهم و٢٢ طالباً من طلبة الصيدلة. وبلغ عدد دارسي طبّ الاسنان للسنين الثلث ٤١ طالباً ودارسات فنّ التوليد ٩

امّا عدد الذين تخرَّجوا في المكتب الطبي منذ انشائه فيبلغ ٧٦٠ طبيباً قانونياً. يزاولون في انحاء الشرق بل في الشرق الاقصى ومنهم عدد عديد في اميركة وافريقية وحتى في جهات اوربة فيخدمون بجدّهم وعلمهم صوالح فرنسة وينشرون علومهـا ويشيدون بفضلها

وقد جاء تشييد المستشفى الجديد الذي وضع رسمهُ حضرة الاب ماترن، منشطاً لكل اعمال الرحمة. ففي غرَّة السنة ١٩٢٩ نُقل المرضى من مستشفى القديس جرجس الذي كان مستأجرًا انمريضهم بعد الحرب الى المعاهد الخاصَّة بهم فقامت بخدمتهم راهبات القديس يوسف بنشاط وتفانٍ عجيبين لا يأخذهما الملل ولا يضعفها السأم

وهناك ايضاً مستوصف يتقـاطر يومياً اليـهِ الاعلاء من كل صوب ليستشيروا الاطبَّاء الـذين يتناوبون في فحص امراضهم ويوزّعون على الفقراء منهم الأدويـة المجّانيَّة

﴿مدرسة الحقوق﴾ أحرِ بها ان يُشادَ مثلُها في بيروت لتخلف مدرسة الحقوق الرومانية السابقة التي أعلَتْ منارها فذاع صيتُها في كلّ العالم من القرن الثاني للمسيح الى اواسط القرن السادس حيث ابادتها الزلازل المتتالية مع المدينـة كلّها . فقامت المدرسة البيروتية الجديدة لتحيي تلك الآثار الدارسة فكان الفضل في ذلـك لغرفة التجارة القيمة في حاضرة ليون ولاسيما لرجل الهمَّة القعساء فقيد العلم والادب المسيو هوڤلين (Huvelin) الذي لم يألُ جهدًا حتى حقَّق مرغوبهُ بإنشائهـا وكادت الحرب

الكونية تطمس آثارها لولا ثبات وتسييا . فما كادت ان تولى مدبرة حتى تنظّمت وتحسّنت . وها هي ذه اليوم يلقي الدروس الحقوقيّة فيها اربعة من علماء الحقوق القانونيين الفرنسويين يرئسهم مدير فرنساوي وكنشليار يسوعي يساعدهم استاذان وطنيّان لتعليم الفقه الاسلامي وشرح الدستور الوطني . ولعلم الحقوق مقدّمات يقوم بها احد الآباء اليسوعيين مع تعريف الفرائض والواجبات التي هي كأساس ذلك الفنّ . وتتولّى لجنة خصوصيّة يعيّنها في فرنسة وزير الامور الخارجيّة تحت نظارة احد معلّمي مدرسة ليون . امّا عدد التلامذة فكان في السنة المدرسية ١٩٢١–١٩٢٢ نحو المئة . ثم بلغ في العام الماضي ١٣٦ طالباً . وقد اخذ البعض من الذين انهوا دروسهم في مكتبنا يشغلون المناصب القضائية المهمّة . امّا عدد الذين نالوا اجازة المأذونية فكانوا في السنة ١٩٢٠ ثلثة عشر ثم ١٧ في السنة ١٩٢١ ثم ١٩ ثم ٢٠ ثم ٢١ للعام الماضي

﴿مدرسة الهندسة﴾ يدرّس فيها ستّة معلّمين اثنان منهم يسوعيّان نالوا جميعاً اجازة الدولة الفرنسويّة الرسميّة . يساعد هؤلاء الستّة في تعليمهم ثلثة معلّمين لبعض لواحق الهندسة . والفحص الاخير يجريه الطلبة امام لجنة يعيّنها المفوّض السامي في سوريّة ويختار رئيسها . امّا عدد التلامذة فبلغ في السنة الاخيرة ٢٤ دارساً . وقد نال اجازة المدرسة ١٤ طالباً وكلّهم قد تعيّنوا لادارة اشغال هندسيّة مهمّة في سورية ولبنان والبعض في فلسطين والسودان

﴿مرصد كسارا﴾ قد مرّ لنا في العام المنصرم (المشرق ٢٢ [١٩٢٤]: ٥٧٧–٥٨٦) وصف هذا المرصد فيكفينا حاضراً ان نقول انّ ذاك المعهد العلمي ظهر الى حيّز الوجود في اواخر سنة ١٩٠٧ بهمّة مديره الحالي حضرة الاب برلوتي الفلكي الشهير فهو الذي اختار له موقعهُ في منعطف التلال التي تنحدر من لبنان الى سهل البقاع على علوّ ٩٢٠ متراً فوق سطح البحر حيث يصفو اديم السماء في معظم فصول السنة

كان حضرة المدير في السنين السبع التي سبقت الحرب استنفد القوى في تشييد ابنية المرصد وتجهيزه بالآلات الرصديّة بعد تجشّم الاسفار المتوالية الى اوربّة والاتعاب الشاقّة . وباشر مع البعض من اخوته الرهبان الارصاد الجويّة بمثابة المراصد المنظّمة فنشر لوائحها تترى فكان الامل معقوداً على قرب توسيع اعمال هذا المعهد العلمي

الخطير فجاءت الحرب وتلاعبت ايدي الاتراك والجهلاء بمحتوياته . فلمّا عاد اليه مديره سنة ١٩١٨ كاد ييأس من اصلاحه

على انهُ شدَّد العزيمة واستأنف العمل تدريجاً وصبَّر النفس على الاسفار وقرع ابواب الجمعيَّات العلمية لينال شيئاً من حسناتها فلم يخب أملهُ فساعدته اريحيَّة الاكادمية الفرنسوية في اصلاح الخراب والتعويض عن الادوات الرصديَّة المفقودة فامكنهُ بعد ثلث سنين ان يُعيد المرصد الى حالته بل يوسّع دائرة اعماله ويزيده رقياً وكمالاً

والمرصد اليوم يشمل عدَّة ابنية مستقلَّة خُصَّ كلٌّ منها ببعض اعماله المنقسمة الى اربعة اقسام أعني رصد الظواهر الجوية والمغناطيسية والزلازلية والفلكية

فهناك بناء خاصّ ذو غُرف متعدِّدة أُودعت فيها موازين ثقل الهواء (البارومتر) واقيسة رصد الرياح وادوات تدوين حركات الزلازل ومن جملتها غرفة واسعة للمكتبة الفلكية وحجرة للشغل والدرس

وتمّ استحضار البناء الخاص برصد الزلازل في تموز من السنة ١٩٢١ فلم تنتهِ السنة حتى بلغت عدد الزلازل المرصودة الى ١٠٤ بين كبيرة وصغيرة

وقد أُضيف الى المكان المختصّ برصد الظواهر الجوية مسافةٌ مكشوفة لميزان المطر ومسقّفٌ لموازين الحرارة والرطوبة والتبخر

وقد أُفرد لرصد الفلك بناء آخر في اعلاه برجٌ مقبَّب بقبَّة دائرة على نفسها وتحت القبة نظَّارة فلكية استوائية تبلغ فتحتها ٢٠ سنتمترًا . وفي اسفل البناء مختبر كيمي وحجرة فوتغرافية وغرفة نُظمت فيها المحرّكات المولّدة للكهرباء ومعمل ميكانيكي ومحلّ للنجارة

وللمغناطيس وادواته بناء ثالث حيث حُفر لها دهليز منفرد عُزل عنهُ الحديد تماماً

وقد تعيَّنت حجرة صغيرة وضعت فيها السُّدُسات لضبط حركات السُّموت فتحتها ٥٥ ملمترًا . وبقربها الرقّاصات وآلات اقيسة الزمان وادوات التلغراف اللاسلكي . وهناك ايضاً قائمتان من الحجر المتين لتحديد الاوضاع الجغرافية واحدى القائمتين قد جُهّزت لخدمة جيش الشرق لتدوين الاقيسة الارضيّة التي تولّى رصدها . وهذه النقطة

هي المركز الفلكي الذي تعيَّن لبعثة الجيش المذكور في سورية

والقائمون بتدبير مرصد كسارا يدوّنون كل يوم ارصادهم ثلث مرّات كانوا ينشرونها في نشرة خاصّة أبطلت في وقت الحرب وقد استبدلوها بمجموعة سنويّة ظهر القسم من مجلّدها الاول

والمرصد يشارك بعثة جيش الشرق لتقرير النقط البدائيّة من خارطة أقيسة ارض سوريّة وقد قرَّر معها قياس قاعدة ١٢،٥٠٠ متر بين برّ الياس ورياق. وكذلك أخذ على عهدته نشر اقيسة الظواهر الجوّية في سوريّة كما صدّقت عليه المفوّضيّة العليا ويساعد المحطّات المعيّنة لتدوين تلك الظواهر بعناية الفرقة البحريّة في سوريّة

﴿خزائن كتب الكلية﴾ لكليّة القديس يوسف مكاتب مختلفة منها صغيرة ومنها كبيرة. (فالصغيرة) تألّفت لافادة التلامذة. فلكل قسمٍ منهم مكتبتهم في قاعات دروسهم تنطبق على سنّهم وصفوف مدارسهم. معدّل كل مكتبة الف كتاب. يطالعونها في اوقات الفراغ والراحة. وللمدارس العربية ايضاً مكتبة عمومية تحت نظر مدير دروسهم تبلغ ٨٠٠ مجلّد. امّا الاكليريكيّون فلهم مكتبتان الواحدة عمومية واوسع تنيف على الفي مجلّد والاخرى خاصّة بدارسي الفلسفة واللاهوت حافلة بكتب نطاسي الفلاسفة واللاهوتيين. فيبلغ مجموع هذه المكاتب الصغرى نيّفاً وعشرين الف كتاب

واعظم منها شأناً المكاتب الكبيرة. فللطبّ كما سبق مكتبة تحتوي ٣٠،٠٠٠ مجلّد. ولمدرستي الحقوق والهندسة مكتبة حديثة العهد ضمنها نحو ٥،٠٠٠ مجلّد. ولمعلّمي الكلية مكتبة مدرسيّة يبلغ عدد كتبها نيّفاً وعشرة آلاف مجلّد فيما ما يحتاجون اليه لدروسهم الشخصية ولتعليم صفوفهم

وللآباء في الكلية مكتبتان عظيمتان غربية وشرقية لكلّ منها معهد خاصّ. فالغربية في غربيّ جنوبيّ طابق المدرسة الثاني يقدَّر محتويات كتبها نحو ٣٠،٠٠٠. فيها مجاميع ثمينة كمجموع اعمال الآباء اليونان لمين (Migne) في ١٦١ مجلّدًا ضخماً واعمال الآباء اللاتين له في ٢٢١ مجلّدًا ومجموع تراجم القديسين للبولنديين في ٦٤ مجلّدًا كبيرًا ومجموع اعمال المجامع المسكونية والمحليّة لمانسي في ٥٠ مجلّدًا كبيرًا ومجموع اعمال اساطين اللاهوت كالقديسين توما الاكويني وبوناونتورا وعشرات غيرهم تبلغ

كتبهم الضخمة مئات من المجلدات وكذلك تآليف مفسّري الكتب المقدّسة وكبار المؤرخين . ولكل علم منشوراته القديمة والحديثة يستدل عليها بفهارس منظمة وهناك عدّة دوائر علوم ومعاجم مختلفة . هذا فضلاً عن مجموع مجلات افرنسية شهيرة كمجلة العالَمَيْن (Revue des Deux Mondes) ومجلة المراسل (le Correspondant) ومجلة الابحاث (les Etudes) ومجلة التمدُّن الكاثوليكي (Civiltà Cattolica) ومن كتب تلك المكتبة الخطيرة مجموع اعمال كتبة اليونان والرومان من الفلاسفة والمؤرّخين والجغرافيين والادباء المطبوعة بطبعة ديدو (F. Didot) الشهيرة

أمّا الشرقية فهي اوسع مكاتب الكلية مادةً واعظمها جدوى اذ تتناول جميع علوم الشرق وهي لا تقلّ عن ٣٥،٠٠٠ مجلد باشرنا بجمعها منذ ٤٥ سنة . وقسمها الاكبر مختصّ بالمطبوعات والمخطوطات العربية فالمطبوعات نحو ١٥،٠٠٠ مجلد مدارها على كل العلوم الدينية والمدنية والنصرانية والاسلامية المطبوعة في كل انحاء العالم شرقاً وغرباً . والمخطوطات عددها ٣،٢٠٠ بينها المصاحف والمخطوطات الملوّنة والمصوّرة والتآليف النادرة الفريدة في كل صنف من العلوم وبعضها مخطوط بقلم مؤلفيها او قريب من عهدهم ومن جملتها مخطوطات على الرقّ باليونانية والاسطرنجيلية ومنها بالكلدانية والسريانية والفارسية والتركية والحبشية والقبطية والارمنية . وقد نشرنا بالافرنسية ثلثة اقسام في ٢٠٨ صفحات وصفنا فيها ٣٣٦ مخطوطاً من الكتب التاريخية والجغرافية والرياضية والفلكية والطبيعية والكيموية والطبية . وعمّا قليل سيصدر وصف المخطوطات الكتابية والفلسفية . وقد أُفرد لكل هذه المخطوطات غرفةٌ أُلحقت بالمكتبة الكبرى

وفي المكتبة الشرقية معظم ما طُبع باللغة السريانية والكلدانية وفي الطقوس الشرقية . وفيها ايضاً مجموع كبير من المطبوعات الفارسية والتركية والعبرانية والارمنية والسنسكريتيّة والقبطيّة والحبشيّة وبعض الكتب الصينيّة واليابانيّة

ومن فرائد المكتبة مجموع اوصاف مخطوطات اوربة الشرقية كباريس ولندن وبرلين وفينّة ورومية وليدن وبطرسبورج واوكسفرد وكمبردج

وتمتاز المكتبة بكتب الآثار والفنون الجميلة الشرقية . منها المطبوعات عن آثار مصر وبابل واشور بالحروف الهيروغليفية والمسمارية وعن الآثار الفينيقية والحثية

واليونانية واللاتينية مع الجاميع المختصة بها والمنشورات المصوَّرة التي اصدرها ارباب الحفريات والبعثات الدولية واسفار الرحالين القدماء والمحدثين الى انحاء الشرق

ومن مميزات المكتبة الشرقية مجموعة نحو ١٥٠ مجلة في كل ابواب العلوم الشرقية كالمجلات الاسيوية الفرنسوية والالمانية والانكليزية والاميركية والايطالية ومجموعة المجلة الاثرية (Revue Archéologique) ومجموعة المجلات الفلسطينية الانكليزية والالمانية ومجلتي الشرق المسيحي واصداء الشرق وغيرها كثير قد جُمعت في غرفة خصوصية لضيق المكتبة الشرقية الكبرى عن إحرازها

وكذلك هناك غرفة ثالثة لاحقة بالمكتبة الشرقية غنية بالمطبوعات المنوطة بالاديان وبالاسفار المقدسة في اللغات الشرقية والغربية من جملتها مجموعة الكتب المقدسة في سبع لغات المطبوعة في لندن سنة ١٦٥٧ (Polyglotte de Walton) وصورة النسخة السريانية للكتب المقدسة المحفوظة في ميلانو ومطبوعات اخرى عديدة بينها (في المكتبة الغربية) صورة المخطوطة الفاتيكانية للاسفار المقدسة (Codex Vaticanus) الراقية الى القرن الرابع للميلاد

وللمكتبة الشرقية تسع دوائر المعلوم في لغات شتى: دائرتان للعلوم الكتابية واربع دوائر للعلوم الاثرية والتاريخية ودائرة للعلوم العصرية. ودائرة لمجموع العلوم اليهودية (the Jewish Encyclopedia) ودائرة للعلوم الاسلامية

امّا تاريخ المكتبة الشرقية وجمع مؤلفاتها فيرتقي الى السنين الاولى من الكلية حيث جمعنا في غرفة شغلنا بعض المطبوعات الشرقية التي كانت سابقاً في مدرستنا الغزيرية مع عشرة مخطوطات الى خمسة عشر مخطوطاً متفرقة في الكلية. ولم نزل مذ ذاك الحين نسعى في استحضار المطبوعات الوطنية والاجنبية امّا بطريقة الشراء وامّا بالمبادلة بمطبوعاتنا وقد تلطفت الحكومة الافرنسية فاهدتنا كثيراً من مجاميعها الثمينة الى ان ضاقت الغرفة عن ضمّها فنُقلت الى غرف اوسع مراراً ثمّ أُفرد لها قسم من المكتبة الغربية حتى اضطرّ الامر الى نقل المكتبة الغربية الى بناية جديدة واستقلّت عنها المكتبة الشرقية كما هي اليوم

ولمّا وقعت الحرب الكونية أُصيبت مكاتبنا ببعض الاذى ولاسيما المكتبة الشرقية التي نقلت الحكومة التركية كثيراً من مطبوعاتها الى الاستانة. وكان قسم

من مخطوطاتها ومطبوعاتها مستودعاً لامانة بعض الأهلين فخيّب واحد منهم أملنا ونشر الخبر فوضعت الحكومة يدها على تلك الودائع ولم تَعُد الى مكانها إلّا بعد فقدان عدد عديد من تلك الكنوز وبينها ٥٢ من المخطوطات الثمينة

فهذا نظر اجمالي في مكاتب كلية القديس يوسف تؤهل اصحابها للكتابة والخطابة في سائر المواضيع العلمية وهي لا تضنّ بها على غير اصحابها من العلماء والباحثين اذا التمسوا ذلك من رؤساء المدرسة ولايخلو يومٌ إلّا يأتينا بعضهم فيأخذهم العجب من غنى مكاتبنا التي يجدون فيها غالباً ما لم يحصلوا عليه في غيرها

﴿ المطبعة الكاثوليكية ﴾ هي ملحقة بكلية القديس يوسف وان تكن سبقتها باثنتين وعشرين سنة. فلمّا أُنشئت الكلّية نُقلت ايضاً المطبعة من مكانها في حيّ الصيفي وأُفرد لها بناء كبير جنوبي غربيّ الكلية. ومنذ ذاك الحين جارت الكليّة في رقيّها وتحسين أدواتها وسبك حروفها. فكان الفضل في ذلك لرئيس رسالتنا الطيب الذكر الاب امبروسيوس مونو ولفقيد الطباعة وقدوة العَمَلة الاخ ماري الياس اليسوعي المرتدّ عن الاسلام (اطلب ترجمتهُ في المشرق ٤ [١٩٠١]: ٨٦٥–٨٧٢) .

وفي هذه السنين الخمسين الاخيرة صدر معظم مطبوعاتنا الجميلة كالكتاب المقدّس في ثلثة اجزاء. وكالمعاجم المختلفة في العربية منها اقرب الموارد والمنجد وفي العربية والافرنسية والعربية والانكليزيّة والافرنسية والعربية الصغيرة والكبيرة وعدّة مطبوعات مدرسية منها في العربية كالقواعد الجلية ومجاني الادب وعلم الادب ومنها في اللغات الاوربية كالافرنسية واللاتينية والسريانية والقبطية والحبشية لافادة المستشرقين. ومنها تاريخية وادبية كمختصر تاريخ لبنان وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى وتواريخ ابن العبري وابن بطريق ومحبوب المنبجيّ وابن الراهب وتواريخ هلال الصابي وابن القلانسيّ وابن عُمر الكندي ومجمع البحرين ومقامات بديع الزمان ورسائله وروايات الاغاني. ومنها شعريّة كديوان الاخطل ونقائضه وكنظم امثال الميداني (فرائد اللآل) وكشعراء النصرانية ودواوين الخنساء والسموءل وسلامة بن جندل وابي العتاهية وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة ومراثي شواعر العرب والمفضّليات مع شرحها. ومنها لغويّة ككفقه اللغة والالفاظ الكتابية وتهذيب الالفاظ

ومن هذه المطبعة صدرت جريدة البشير منذ السنة ١٨٦٩ ومجلة المشرق من السنة

١٨٩٨ ومجموعة المكتب الشرقي من السنة ١٩٠٦ ورسالة قلب يسوع من السنة ١٩٢٠ . وممن لم تنسَ فضلَهُ ما نسيَتْ ذلك المرسَلُ الغيور ورجلُ الله الاب يوحنا بلُّو الذي ادار المطبعة سنين عديدة ونشر فيها كثيرًا من التآليف المفيدة الدينيَّة والمدرسية (اطلب ترجمتهُ في المشرق ٧ [١٩٠٤] : ١١٤—١١٥)

وكان في مدَّة الخمسين السنة نعم المساعدَيْن لترقية المطبعة وتحسين حروفها الاخ المرحوم انطون عبدالله اليسوعي (اطلب المشرق ٢١ [١٩٢٣] : ٢١٧و٢٩٧—٢٩٩) والمرحوم حنَّا علَّام

وساعد في تأليف مطبوعاتها وتصحيحها ما خلا الآباء المرحومون الشيخُ ابراهيم اليازجي والشيخ سعيد الشرتوني وشقيقهُ رشيد . وحرَّر غيرهم جريدة البشير تحت ادارة الآباء كالمرحومين جرجس زوين والخوري يوسف البستاني ورشيد الشرتوني

ولو اردنا ان نشمل بنظر واحد منشورات المطبعة الكاثوليكية لوجدنا أنَّها نشرت ٢٧ كتاباً في الاسفار المقدَّسة ومتعلقاتها و٢٢ كتاباً من الصلوات و٢٥ كتاباً في التعليم المسيحي و ١٩ كتاباً في عبادة قلب يسوع و ٢٣ كتاباً في العبادة السيدة العذراء مريم و ٣٥ كتاباً في تراجم القديسين و ٤٥ كتاباً في تفنيد الاضاليل والدفاع عن العقائد الكاثوليكية و٣٤ كتاباً في الطقوس الشرقية والقوانين الرهبانية و ١٠ كتب في المواعظ و ٣٧ كتاباً في التاريخ والسِيَر و ١٧ ديواناً شعريًّا و ٤٧ كتاباً في مبادئ القراءة . وتعليم العربية و ١٢ معجماً عربيًّا واعجميًّا و ٣٧ كتاباً في اللغويَّات و ٣٢ كتاباً لتعليم اللغة الافرنسية والايطالية والإنكليزيَّة و ٣٥ كتاباً من الروايات و ٢٣ كتاباً في السريانية والكلدانية و ٢٧ كتاباً في اللغات اللاتينية والافرنسية والتركية والارمنية والقبطية والحبشية . و ١٠٥ كتب شتى . هذا فضلًا عن ٥٠ مجلَّدًا من مجموعة البشير و ٢٣ مجلَّدًا من المشرق و ٥ مجلَّدات من رسالة قلب يسوع و ٩ مجلَّدات من آثار المكتب الشرقي

فمن هذه اللائحة ترى صدق ما نظمهُ المرحوم المنسنيور يوسف العلم في وصف المطبعة الكاثوليكية فقال في سنة يوبيلها سنة ١٩٠٣ :

أكرِمْ بمطبعةٍ قضتْ من عهدها ... خمسين عاماً بالمعارف زاهرهْ

واليومَ ذا يوبيلُها متقبّلٌ ... منَّا التهاني من قلوبٍ شاكرهْ

كيف السبيل الى قضاء حقوقها فرضَ الثنا وحقوقُها متكاثره
وعلومُها وفنونُها وصفوفُها بصنوفها مثلُ البحار الزاخره
وبريدُها يبدو بطلعة مشرقٍ وبشيرُها تهوى النفوسُ بَشائره
هيَّا بنا ندعو طوابعها التي منها تلقَّينا العوارفَ ماطره
فانطبعَنْ منَّا الثناء عِدادَ ما طبعت صحائفُها الحروفَ الوافره
قُل انما طَبَعاتها بقلوبنا لا تُمحى والنفسُ منَّا ذاكره
ان الديانة والعلوم واهلها تُهدي الثناء لفضلها مُتفاخره
خيرُ العوارفِ بالمعارف لا سوى هذي تدوم مع الدهور معاصره
قد يُفقَدُ المال العزيزُ وانما العلم الشريفُ لهُ الحياةُ مضافره
انَّ المطابعَ للعلوم جداولٌ تجري الى كل الورى متشاطره
لكنما خيرُ المطابع ما غدَتْ للدين والآداب عيناً ساهره
للعلمِ بالوَحيِ الكريم علاقةٌ ترعى جوانبَها العيونُ الطاهره
ما كلُّ من قال القصائدَ شاعرٌ والحكمُ في هذا لأذنٍ شاعره
يا أيها الرحمانُ صُن جمعيَّةً عقدَت عُرى الآمالِ بأبن الناصره
باسمٍ لهُ دُعيَت تتيهُ تعزُّزًا لأسمٍ لهُ تعلو الخلائقُ صاغره

٥ اعمال الكلية في الخارج

لم تحصر كليَّة القديس يوسف اعمالها ضمن مدرستها بل تولَّت كثيرًا من المشروعات الدينيَّة والتهذيبية والخيريَّة كان لها تأثير عظيم في خير القريب وصالح العموم. فها نحن نذكر شيئاً من ذلك

١ المشروعات الدينيه

من اخصّها الاخويَّات التقويَّة التي يقوم بتدبيرها آباء الكلية وهي متعدّدة فمنها ما هو للرجال ومنها ما هو للنساء.

﴿اخوية الحبل بلا دنس﴾ هي اخوية الرجال لذوي اليسار من اهل التجارة واصحاب الاملاك أُنشئت منذ السنة ١٨٤٩ فبلغت اليوم يوبيلها الماسي. فكان اول

منشأها في ١٥ نيسان من تلك السنة باتفاق ذوي الوجاهة المرحومين درويش غنطوس تيّان وعبد الاحد خضرا واسكندر برتران والشيخ الياس مرعي الدحداح ورزق الله خضرا مع الاب هنريكوس دي برونيار (H. de Prunières) فاختاروا اكرام العذراء تحت سرّ الحبل بها البريّ من الدنس وذلك خمس سنين قبل تثبيت هذه العقيدة الكاثوليكية ونالت من مراحم رئيس الرهبانية اليسوعية العام في رومية الاشتراك مع الاخوية الرومانية الاصلية وأمّ باقي الاخويات منذ نحو اربعمائة سنة لتتمتّع بجميع انعاماتها واختصاصاتها وغفارينها

ومذ ذاك الحين لم يزل عدد المشتركين ينمو فيمارسون بكلّ نظام افعالهم التقويّة تحت نظارة احد آباء الكلية وكانوا كلّ سنة ينقطعون لرياضة روحية قبل احد الشعانين ويزورون مرّة احد معابد العذراء خارج البلد ويثابرون على اسرار الكنيسة ويسعون الى نشر السيرة الصالحة بين اهلهم ومعارفهم ويتولّون كثيرًا من اعمال الخير بين مواطنيهم وخصوصاً نحو الفقراء والمحتاجين والمحبوسين . وكان اجتماعهم في الاخوية على اختلاف طوائفهم يوثّق روابط الحبّ والاخاء بين الكاثوليك ويعتّم لديهم العبادة لقلب يسوع الاقدس والبتول البريئة من دنس الخطيئة الاصلية

وفي السنة ١٨٩٩ دعاهم مرشدهم الاب استانسلاوس شيخو الى حفلة العيد الخمسيني فاجتمع منهم في ٤ حزيران عدد وافر ضاقت بهم اعظم ردهات الكلية وأقيمت الرتب الدينية الجليلة برئاسة سيادة القاصد الرسولي ومُنحت بركة الحبر الاعظم لاعضاء الاخوية بموجب براءة ارسلها لهم قداستهُ في ذلك النهار. ثمّ تبادلوا ارقّ عبارات التهانئ وقضوا يومهم في الفرح الروحي ذاكرين ما جرى عن يدهم في ذاك نصف القرن من الاعمال المأثورة لخلاص نفوسهم وخير قريبهم معدّدين خصوصاً مبرّات المتتيّحين منهم بالربّ وشاكرين للبتول شفاعتها وسوابغ نعمها

وفي وقت الحرب الكونية خمدت نوعاً حركة الاخويّة بوفاة كثيرين من اعضائها لكنها لم تبطل وعادت النار الكامنة تحت الرماد الى نورها بعد فوز الدول المتحالفة ودخول فرنسة في ربوعنا

«اخويّة العملة» هي اكبر اخويّات الكليّة . ابتدأ في تأليفها سنة ١٨٦٣ احد رهبانها الاب يوحنا فيروثيش في ديرنا القديم في الحيّ الصيفي اصلاح العملة من حمّالين

وبنّائين وباعة وخدّام اذ رآهم مهملين وهم كما يقول الانجيل المقدّس كالخراف التي لا راعي لها فتحنّن عليهم على مثال سيّده الالهي . فلم يزل يجدّ ويكدّ ويحرّك كل ساكن الى ان جمع البعض منهم واحسن اليهم فكانوا اوساطاً بينهُ وبين زملائهم . وما عتّم ان جمع منهم العشرات ثمَّ المئات وسعى الى ارشادهم وجلبهم الى ممارسة فروض الدين فأضحوا مثالاً وقدوة صالحة للعملة حتى أُشير اليهم بالبنان

وقد اتّخذ لهم شفيعةً لاخويّتهم البتول امّ الاحزان ليجدوا في اوجاعها سلواناً وتعزيةً في اتعابهم . تفنّن في ايجاد الوسائط لإحراز ثقتهم ولدفعهم الى الحياة الفضلى كالاعياد البهجة والاغاني التقويّة المطربة وتشنيف آذانهم بالادوات الموسيقية وكان يهتمّ باشغالهم ويتوسّط لدى ارباب الامر في شؤونهم ويعود المرضى منهم ويُحسن الى المنكوبين ويُعنى بتربية صغارهم ويمشي معرجالهِ في جنازة المائتين منهم فكانت هذه ووسائط أُخرى مدعاةً الى نجاح تلك الاخويّة التي بلغ في بعض الاوقات عدد المشتركين فيها قريباً من الالفين . وقد خلفهُ بعد وفاتهِ سنة ١٨٩٨ رهبان من اخوتهِ تأثّروا آثارهُ وقرّروا عملهُ منهم الاب ادواو ميشال الذي نشرنا ترجمتهُ مؤخّراً (المشرق ٢٢ [١٩٢٤] : ٩٨٣-٩٩١) وحضرة الآباء جول كرسانتي وابيل ديد ورزق الله ثابت مع بعض افاضل الكهنة من تلامذتنا الاكليريكيين كالخوارنة يوحنا طنّوس وبطرس فرج ويوسف فارس

ولاخوية الام الحزينة مآثر عديدة منها دينيّة كالسجود الليلي في ليلة الجمعة الاولى من الشهر للقربان الاقدس وكاقامة بعض حفلات دينيّة لاكرام جسد الربّ ولسيدة الاوجاع شفيعتهم بطوافين جليلين وكنشر العبادة لقلب يسوع وكزيارة سنويّة كانوا يباشرونها الى القدس الشريف والاماكن المقدّسة عند سنوح الاحوال السياسيّة . ومنها خيريّة واجتماعيّة كعيادة المرضى مع مرشدهم وزيارة المحبوسين والاحسان اليهم في بعض فصول السنة وخصوصاً في أيام الصوم المبارك ليقرّبوا اليهم ممارسة فرائضهم الفصحيّة وكاهتمامهم بصغار الصنعة وتعليمهم المبادئ الدينيّة واعدادهم للمناولة الاولى . ومن اخويّتهم تفرّعت جمعيّة الشبّان تحت حماية القديس لويس غونزاغا التي جعلت غايتها هذه الاعمال الخيريّة

ولما كانت السنة ١٩١٣ احتفلت الاخويّة بيوبيلها الذهبي فتألّف لحضور اجتماعات

العيد اكثر من ألف اخ من المشتركين بها أتوها من أحياء بيروت ومن قرى لبنان فرأوا رأيَ العين ما صارت اليهِ تلك حبَّة الخردل الصغيرة اذ بلغت نموَّ الاشجار الباسقة المظلّلة لالوف من طيور السماء في الوطن وفي دار المهجر . وقد خصَّصنا وقتئذٍ مقالة واسعة لذكر هذا المشروع الخطير وتاريخ مُنشئهِ ووصف ثمارهِ الجنيَّة (في المشرق ١٦ [١٩١٣] : ٣٢٩ - ٣٣٥)

واليوم بعد خمود نيران الحرب التي لم تطفئ تماماً تلك الجمرة المتأجّجة ترى في كنيسة كليّتنا أيّام الاحد عند الظهر المئين من الاخوة يمجّدون الله والعذراء أمّهم بتسابيحهم وشواعرهم التقويَّة

﴿اخويَّة الشبَّان﴾ أُنشئت السنة ١٨٨٢ لفائدة الشبَّان بعد نهاية دروسهم وانضمَّ اليهم طلبة الطبّ . وكان مُنشئ هذهِ الاخويَّة الا[illegible] (J. Zelle) الذي أدَّى للناشئة خدماً مشكورة هو وخلفهُ ادب[illegible] فأعدَّا للوطن العزيز رجالاً كانوا لهُ عضداً في المشروعات الوطنيَّة وشرفاً بحسن سلوكهم وفضائلهم الاجتماعيَّة وقدوةً لامثالهم من الشبَّان

﴿جمعية قلب يسوع للسادة﴾ هذه الجمعية قد همَّ بانشائها حضرة الاب كاتن سنة ١٩١٠ مختصَّة بنخبة من الرجال ذوي الفضل السابغ والرغبة في الصلاح حُدَّ لها عددٌ لن تتجاوزهُ . وغايتها اهتمام ذويها بكل ما يؤول الى مجد الله وخير القريب ومناصرة الدين والآداب الصالحة . ولهم ايضاً مجتمعهم الشهري في معبد خاص لممارسة فروضهم الروحية يعقبهُ اجتماع آخر يتفاوضون فيهِ عن كلّ ما من شأنه ان يساعد على النهضة الدينيَّة بين العموم ولاسيا بين ذوي الاعتبار والوجاهة ويتَّخذون الوسائط لتنفيذ نيَّاتهم المقدَّسة

﴿اخوية الميتة الصالحة﴾ أُنشئت بعد اخويَّة الحبل الطاهر باثنتي عشرة سنة (١٨٦١) لتقديس حياة النساء بالعيشة البارَّة واعدادهنَّ للميتة الصالحة . فأُلحقت بالاخويَّة الامّ في رومية تحت شفاعة القديس يوسف . وقد نمت هذه الاخويَّة نموّاً عظيماً بهمَّة مرشديها الاباء فيلبُّس كوش واستانسلاوس شيخو وسيرافيم سكوتي وهنري شبران وانطون صالحاني الذي لم يزل على إرشادها منذ السنة ١٩٠٥ . وينيف عددها اليوم الخمسمائة بعد ما أُصيبت في وقت الحرب من الجمود . ولهذه الاخويَّة

اجتماعاتها المنظَّمة في كل اسبوع ورياضاتها السنويَّة واعيادها الرسميَّة لاسيما عيد القديس يوسف شفيعها في ١٩ آذار حيث يتجدَّد تكريس العائلات والاطفال الاحتفالي لحمايته. وفيها تجري الممارسات التقويَّة في الاشهر الثلثة اليوسفي (في آذار) والمريمي (في ايار) وشهر القلب الاقدس (في حزيران)

وفي السنة ١٩١٢ بلغت الاخويَّة يوبيلها الذهبي فأُقيمت لذكرهِ اعياد شائقة رأسها سيادة القاصد الرسولي وتشرَّفت بحضور اسقفين وكثير من جلَّة الاكليروس ووجوه المدينة

﴿اخويَّة الصانعات﴾ في بيروت عدد جزيل من الصانعات ومعظمهنَّ من لبنان يتزلن من جبلهنَّ وهنَّ غالباً ساذجات القلب طاهرات الذيل وافرات التقى فاذا اختلطن باهل المدينة كثيرًا ما يتعرَّضن لاخطار جسيمة تؤدي بهنَّ الى ما لا تُحمَد عاقبتهُ وينتهك حمى عفافهنَّ. فهذا ما دفع في ٢٣ آذار السنة ١٩١١ حضرة الاب صالحاني الى انشاء اخويَّة خاصَّة بالصانعات ليصون نفوسهنَّ من كل شائبة تمس شرفها ويزيدهنَّ تُقى وصلاحاً لخيرهنَّ الشخصي ولفائدة البيوت والعيال التي ترغب في استخدامهنَّ. وقد نالت هذه الاخويَّة الاجازة الرسميَّة من رومية في ١١ ك ٢ سنة ١٩١٢ بوضعها تحت حماية سيدة الحبل بلا دنس والقديسة حنة ام والدة الله. فاقبل على الانتظام في سلكها عدد وافر من الصانعات يجتمعن كل خميس لاداء فرائض الاخوية. ولهنَّ ايضاً رياضتهنَّ السنويَّة ويوم خاصّ لزيارة بعض معابد البتول في خارج البلد وقد أعربن غير مرَّة عن كرم نفسهنَّ بعضد المشروعات الدينيَّة والخيريَّة كمشروع الاشتراك بنشر الايمان المسيحي في البلاد الاجنبيَّة وكمساعدة الفقراء. وقد رأيناهنَّ آخرًا قد اكتتبن ليقدّمن للشيوخ العجز في دار راهباتهم مأدبة على نفقتهنَّ حضرنها وقُمنَ بخدمتهِ جازاهنَّ الله خيرًا

﴿جمعية قلب يسوع للسيدات﴾ أُنشئت هذه الجمعية منذ اوائل الكلية بهمَّة رئيس رسالتنا الطيّب الذكر الاب امبروسيوس مونو تشترك فيها نخبة من سيدات البلد وطنيَّات واجنبيَّات. واجتماعهنَّ شهري في يوم الجمعة الاولى من الشهر يحضرن القدَّاس ويواظبن على الاسرار ويصغين الى إرشاد مرشدهنَّ ويُختَم الاجتماع بمنح بركة القربان والغاية من انشاء هذه الجمعيَّة بثّ روح الدين والتقى في أُسر القوم الشريفة.

وعددهنّ اليوم يقرب من الثمانين ويزيد عددهنّ في رياضتهنّ السنويّة

﴿شركة الورديّة المقدّسة﴾ في عهد قصادة الطيب الذكر سيادة المطران شرل دوڤال سنة ١٩٠١ أُنشئ في كنيسة كليّتنا فرعٌ من شركة الورديّة المقدّسة (Archi-confrérie du S^t Rosaire) فُوّض اليهِ منح كلّ الانعامات والامتيازات الممنوحة من الاحبار الرومانيين لمركز هذه الشركة في رومية . ومذ ذاك الحين تُقام الرُتب الخاصة والطواف الاحتفالي لاكرام سيّدة الورديّة في الاحد الاوّل من كل شهر وقد بلغ عدد المشتركين بهذه الجمعية عدّة مئات من المؤمنين

٢ المشروعات التهذيبيّة

كما عُنيت كليّة القديس يوسف ببثّ روح التقى ورفع منار الدين كذلك جعلت ديدنها نشر الآداب والمشروعات التهذيبيّة

﴿المدارس العمومية للفتيان﴾ لا يحتاج كل الاولاد الى التعمّق في الدروس واحراز العلوم الراقية . وهذا ما دفع كليّة القديس يوسف الى انشاء مدارس مجّانيّة لصغار العامّة ليأخذوا من العلوم ما يكفيهم لحاجاتهم اليوميّة كالقراءة والكتابة ومبادئ اللغتين العربيّة والافرنسيّة واصول الحساب والجغرافية والتاريخ . فَفُتحت لهذه الغاية ثلث مدارس في احياء البلدة في رأس بيروت وفي حيّ الدحداح ثمّ في حيّ القيراط خلفتها مدرسة الرميلة . ثمّ فُتحت مدارس أُخرى في خارج المدينة في قراها المجاورة كفرن الشبّاك والشيّاح . وقد بلغ عدد الطالبين في هذه المدارس اللاحقة بالكليّة نحو الثمانية فتعمّم التهذيب الديني والعلمي بين الجمهور

﴿مدارس الاناث﴾ قد كانت الارساليّة اليسوعيّة منذ السنة ١٨٥٣ رأت الحاجة الماسّة لتربية فتيات الاناث في انحاء الشام وخصوصاً في لبنان فانشأ اثنان من رهبانها الاب ريون (سليمان) استاف (R. Estève) والاب بولس ريكادونّا (P. Riccadonna) جمعيّتين رهبانيّتين وطنيّتين لسدّ هذا الخلل الواحدة في بكفيّا تحت اسم «المريمات» لسواحل لبنان وشماله خصوصاً والاخرى في معلّقة زحلة تحت اسم «راهبات قلب يسوع» للبقاع وجهات الشام وقد روينا خلاصة تاريخها واعمالها في المشرق (٢١ [١٩٢٣] : ٦٤١-٦٥٦) بمناسبة يوبيل السنة السبعين لانشائها مع ذكر

العديد البليغ من المدارس التي تولَّينَ ادارتها

ثمَّ رأى الرؤساء انَّ في توحيد الجمعيَّتين خيرًا اعظم فتمَّ ذلك بعد محنة موقتة وأُطلق عليهنَّ اسم راهبات قلبي يسوع ومريم فتنظَّمت جماعتها واستأنفتا العمل بنشاط جديد . وكان لبيروت نصيبها من همّتهنَّ لاسيا بعد ان شيَّد حضرة الاب ارغسطين تَرْدي لهنَّ ديرًا خاصًّا على مقربة من الكلية ووضع لهنَّ قوانين ورسومًا جرينَ عليها ثم عُرضت على الكرسي الرسولي بعد تحويرها فثبَّتها . وقد بلغ عددهنَّ اليوم ٢١٤ راهبة منهنَّ ٣٠ مبتدئة يسكنَّ ٣٩ ديرًا في انحاء سورية ولبنان ويهذّبن نيّفًا و٥٠٠٠ فتاة في ٤٢ مدرسة

﴿التعليم المسيحي﴾ هذا من اخصّ وسائط تهذيب الناشئة وهو ممَّا يتفرَّد لهُ بعض آباء الكلية وطلبة الفلسفة واللاهوت الاكليريكيُّون في مدارس بيروت وجوارها وفي مآوي العجز والاحداث وكذلك تلامذة الكلية الكبار من ابناء الاخويَّات يجمعون بعض الايتام والفقراء ويحسنون اليهم ويعلّمونهم الفرائض الدينيَّة ويؤهّبونهم لاقتبال الاسرار

٣ المشروعات الخيرية

ليست هذه من المهمات الخاصة بالكلية لانقطاعها الى غير ذلك من الاشغال على انها لم تتنكّب عن هذا الامر وهي تنشطهُ على قدر استطاعتها

﴿شركة مار منصور دي بول﴾ معلوم انَّ هذه الشركة مستقلَّة في اعمالها . على انَّ اليسوعيين في بيروت كانوا من اعظم مناصريها فانَّ انشاءها في بيروت كان اوَّلًا في دير الآباء اليسوعيين القديم بحضور الاب ريمون استاڤ الذي رأس اوَّل حفلاتها الرسميَّة في ٧ أيار سنة ١٨٦٠ . ثم توالى اليسوعيون في خدمة اعضائها كالاب هنري دي برونيار والاب فرنسيس بَدُور والاب بولس غرنيه . وكثيرًا ما كان رؤساء الكلية يسعفونها بالحسنات لتقوم بواجباتها كما انَّ الآباء كان يقيمون الرتب الدينيَّة في اجتماعات الاخوة ويشتركون بتهذيب اولاد الجمعيَّة

﴿راهبات العجز﴾ لمَّا احتلَّت راهبات العجز ربوع بيروت اسرع رؤساء الكلية الى اسعافهنَّ ماديًّا وادبيًّا . ولم يزالوا على خطتهم هذه الى اليوم . بل يعوّدون تلامذتهم

على اعمال الرحمة فيقودون البعض منهم في اوقات محدَّدة ليوزّعوا على اولئك البائسين ما جمعوهُ من رفقتهم الدارسين من الحسنات . وفي بعض المواسم يقدّمون لهم الطعام ويخدمونهم على المائدة ويفكّهون ارواحهم بالاغاني والروايات الهزليَّة

﴿خدمة المرضى﴾ في المستشفى الذي انشئ في العام الماضي لحاجات مدرسة الطبّ يقوم الآباء في خدمة المرضى الروحية ويعودونهم مرارًا في الاسبوع ويشاركون الاطبَّاء في معاينة الاعلَّاء الذين يأتون الى المستوصف هناك ويحاولون علاجهم

﴿خدمة الارمن المهاجرين﴾ لما احتلَّ الارمن ربوع بيروت بعد نكباتهم ونفيهم من بلادهم خصَّص رؤساء الكلية اثنين من رهبانهم لخدمتهم مع احد الكهنة المتخرّجين في مدرستهم الكليَّة . فما ألَوْا جهدًا في تلطيف اوجاعهم وخدمتهم الدينيَّة فاقاموا لهم معبدًا كبيرًا وفتحوا لاولادهم المدارس وتوسَّطوا ... لينالوا الاسعافات والانعامات التي يحتاجون اليها

٦ الرجال ومآثرهم

لم تكن كليَّة القديس يوسف لتقوم بمشاريعها الخطيرة التي سبق ذكرها لولا ما قيَّض الله لها من الرجال ذوي المقدرة والهمَّة البعيدة والحزم الثابت . فيسوغ لنا ان نفرد بابًا لذكر البعض منهم ولاسيما الذين استأثر بهم الله فأثابهم عن حسن اعمالهم

وقبل كلّ يجب الشكر لذينك الرجلَين الفاضلين اللذين بمساعيها خرجت الكلية الى عالم الكون اعني بهما الاب امبروسيوس مونو (المتوفّى في ٨ ايلول ١٨٩٨) . والاب كسانيه بالّيو († ٨ ك٢ ١٨٨٧) . فكان للاوَّل منزلة كبيرة بين اخوته الرهبان فوقع عليه الاختيار مرارًا لمناصب الرهبنة الشريفة وكان الاجانب يجلُّونهُ ويعتبرونهُ اعتبارهم لكبار الرجال ويلتمسون رأيهُ في مشاكلهم فيقدّمونهُ على سواهُ . ولمَّا خلَف في رئاسة رسالتنا السوريَّة العامَّة الطيّبَ الذكر الاب كوترله (F.X. Gautrelet) ادرك للحال حاجة الكاثوليك في بلاد الشام الى كليَّة كبيرة واخذ على نفسه تحقيق نيَّته على الرغم من العوائق التي كانت تعترضهُ في سبيلهِ فوقع الامر طبقًا لمرامهِ بل بلغ حيث لم تبلغ الآمالُ والهمَم

أمّا الاب باليو (Fr. - Xav. Pailloux) فكان في اوّل الامر منقطعاً للاشغال العقليَّة والتآليف في الابحاث الدينيَّة والاجتماعيَّة وكان درسَ الهندسة واصولَ فنّ البناء فتفرَّد بها. ومن آثاره البديعة كنيسة الآباء اليسوعيين الكبرى في ليون يعدُّها ارباب الهندسة كآية في الهندسة الدينيَّة. ولهُ تأليف جليل في قطع كبير مزيَّن بالرسوم والنقوش البهيَّة بحث فيه عن هيكل سليمان وسعى بتصويره فاستحسنهُ كثيرون من الاختصاصيين. فهذا هو الراهب الذي انتدبهُ الاب مونو لهندسة كليَّة القديس يوسف التي تُعدّ من اجمل ابنية بيروت بواجهتها المهيبة ومعاهدها المختلفة وكأنَّهُ اراد قبل كلّ ان يوفر لها النور والهواء ويلطّف فيها لفحات الحرّ في فصل القيظ. وقد عُني خصوصاً ببناء الكنيسة التي يأخذ منظرها بالابصار فتراها اهلاً ببيت صلاة يرتفع فيها قلب المؤمن الى الله بالورع والتخشُّع دون ان ينشغل عقلهُ بالعرضيَّات والنوافل

﴿رؤساء الكليَّة﴾ كان اوّل رؤساء لكليَّة القديس يوسف الاب اوغستينوس تردي (Aug. Tardy) تعيَّن لذلك في ٣٥ ك ٢ ١٨٧٦ فقدم بيروت بعد افتتاح المدرسة باربعة اشهر اذ كان يدبّر اشغالها رئيسها السابق في غزير الاب اوغسطين روده (A. Rodet). فكان الرئيس الجديد عند نزولهِ في المرفإ استقبال حافل حضرهُ التلامذة ببزَّتهم الرسميَّة ونوبتهم الموسيقيَّة

ثمَّ عُهد برئاسة الكليَّة للاب رامي نورمان (R. Normand) سنة ١٨٧٨ الى ١٨٨١. لكنَّ الحبر الاعظم لاون الثالث عشر انتدب في اثناء رئاستهِ رهبانيَّتنا الى فتح ارساليَّة جديدة في بلاد الارمن فوُكل الى الاب نورمان بان يذهب الى جنوبي اميركا فيعظ ويلقي المحاضرات ويجمع ما امكنهُ من صدقات تلك البلاد لمساعدة هذه الارساليَّة. فاناب عنهُ في مدَّة غيبتهِ لسياسة الكليَّة الاب يوسف روز (J. Roze) ثم الاب ادوار سالزاني (E. Salzani)

وفي ١٧ نيسان ١٨٨١ ترأس على الكليَّة الاب هنري ج. (Henri Julien) فدبَّرها احسن تدبير ووسَّع نواديها ونظَّم تعاليمها وبلَّغها مقاماً لم تعهدهُ سابقاً

وبعد ثلث سنين عاد الى الرئاسة الاب تردي (٢٩ تموز ١٨٨٤) فوجَّه عنايتهُ خصوصاً الى الملحقات بالكلية كمدارس اولاد العامَّة ومدارس راهبات قلبي يسوع ومريم ثم انتهى زمن رئاسة الاب تردي فقام بعملهِ في تدبير الكليَّة الاب فرنسيس

ترّاس (P. F. Terrasse) وذلك في تاريخ ٢٦ ايلول سنة ١٨٨٧ . وفي الوقت عينهِ صار تدبير الارساليَّة الى يد الاب فيليبار برناردهِ (Ph. Bernardet) فتضافر كلاهما في تعزيز سائر امور مهمَّتهما في الكليَّة والارساليَّة

وفي السنة ١٨٩٠ في ٢٢ ايلول منها ارتأس على الكلية احد ابناء الوطن المرحوم الاب جبرائيل اده فكانت معرفتهُ للبلاد وحسن سياستهِ في تدبير المدرسة ومجاملتهُ لأولي الامر ولعموم الاهل قد حبَّبتهُ الى الجمهور وصرف عنايةً خاصَّة كسلفهِ الاب هنري الى تعزيز تعليم اللغة العربية

وطالت رئاسة الاب اده الى ٣ آب سنة ١٨٩٧ حيث ضبط ازمَّتها حضرة الاب كاتن وكلٌّ يعرف ما طُبع عليهِ من سعة الادراك وحسن السياسة وما لهُ من الاعتبار لدى ارباب الدنيا والدين فيذكرون بلسان واحد ايَّام رئاستهِ بالخير

ثمَّ عُهدت الى حضرتهِ رئاسة الارساليَّة جمعاء فاستناب لاس... الخاص في ٢٧ آب ١٩٠١ الاب لاون كلار (L. Clerc) وفي عهدهِ أنشئ المكتب الشرقيّ فكان الاب كاتن متولياً لنظارتهِ بصفة كنشليار يساعدهُ في التعليم ستَّة من الآباء. فكان لهذا المشروع موقع حسن لدى محبي الدروس الشرقيَّة فقدم لحضور تعليمها نحو ١٥ من المترشحين لتدريس اللغات الشرقيَّة في كليَّات اوربَّة

في السنة ١٩٠٤ في ٢٥ آب قدم من فرنسة لرئاسة الكليَّة رجلٌ مشبع من العقل وهو خطيب بليغ الاب هنري غريسيان (H. Gressien) وكان متأجباً غيرة لتقدُّم الكليَّة ماديَّاً وادبيَّاً . فساسها مدَّة ثلث سنوات بحزم كلّي ومشيئة نافذة لا يضمنها عائق . وكان المذكور مولعاً بالفنون الجميلة يتقن التصوير والهندسة فرأى حاجة الكلية الى معاهد جديدة فلم يزل يكدُّ ذهنهُ ويسهر جفنهُ حتى وجد لهذه الأُربة حلًّا واغنى الكليَّة بنوادٍ أفرجت لزمنٍ عن ضيق ابنيتها

ثم أُصيب الاب غريسيان بوجع في عينيهِ اضطرَّهُ الى الرجوع الى فرنسة فقام بعملهِ ثانيةً حضرة الاب كاتن متنزّلًا عن الرئاسة العامَّة لحضرة الاب ادوار ڤان دي بوت في ١٣ آب ١٩٠٧ . فدبَّرها بهمَّتهِ ودرايتهِ المعهودتين الى السنة ١٩١٠ فسُند تدبير الكليَّة في ٢٢ آب منها الى حضرة الاب انطون فوجول(A. Foujols) الذي ساسها بكل حكمة وتفانٍ الى سنة الحرب وهو لم ينثنِ عن خطتهِ المستقيمة مع ما كان

يتوقعهُ من المخاطر القريبة بل لم يُحجم عن فتح المدرسة للسنة الجديدة وسحاب الجوّ يبرق ويرعد سياسةً . على ان الامركان قُضي وما لبثت الحكومة ان اعلنت بالحرب للدول المتحالفة ماشيةً مع الدول المركزيّة . فأقفلت الكليّة وتفرّقت عمدتُها

اربع سنوات بكت الكليّة على اصحابها الى ان احتلّ الحلفاء ربوع بيروت في اوائل تشرين الاوّل فجاء احد ضبّاط الفرنسيس بغتةً الى باب المدرسة وتقدّم الى المحتلّين فيها بالخروج . فخرجوا في صباح ١١ ت ١ وعاد من حضر من اليسوعيين الوطنيّين الى ديرهم وقضوا شهرًا في تنظيفهِ من الاقذار وإصلاح ما خرب من ابنيته

وفي يوم عيد الميلاد ١٩١٨ سُررنا بقدوم حضرة الاب شانتور وكان تعيّن كرئيس عام للرسالة السوريّة منذ ١ تشرين الثاني وكان بمعيّتهِ حضرة الاب كاتّن بصفة رئيس الكليّة فكان حضورهما مدعاةً لفرح الاهلين وحياةً مستجدّةً للكليّة بعد موتها . فأسرع كلاهما وأنعشا تلك الروح الجامدة واقبل الاهلون بابنائهم واثقين بحسن تربيتهم كما عهدوهم سابقاً قبل تلك الحرب الضاربة على تعليم الناشئة وتهذيبها

دامت رئاسة الاب كاتّن الثالثة الى ٢٨ آذار ١٩٢١ فدُعي الى رئاستهِ السابقة على المكتب الطبي الفرنسوي . وصارت الكليّة مذ ذاك الحين في عهدة حضرة الاب شانتور وقام مقامهُ في الرئاسة العامّة على الرسالة حضرة الاب ابيل ديد . فوافقت رئاسة الاب شانتور السنة اليوبيليّة . وهو نعم الاتّفاق لما لحضرتهِ من الايادي البيض في خدمة الكليّة منذ اربع سنوات ونيّف

﴿مشاهير اليسوعيّين﴾ نقصر كلامنا على المتوفّين دون الاحياء . ولا نذكر غير بعض الافراد الذي عرفناهم شخصياً فيمكننا ان نشهد لهم بالفضل

واوّل من نحبّ ان ندوّن هنا اسماءهم بعض الذين عطّرونا بشذى برارتهم وفضائلهم . منهم الاب بطرس مرتين (✝ ١٨٨٠) صاحب تاريخ لبنان فانّنا عرفناهُ سنين طويلة فوجدنا سيرتهُ وتصرُّفهُ اشبه بسيرة وتصرّف قدماء النسّاك لا يعرف إلّا الصلاة والشغل — والاب گوتراه (Fr. X. Gautrelet) من كبار المتعبدين لقلب يسوع وذو الفضائل السامية التي دوّنها في كتاب واسع احد رهبانهِ . وكتبهُ الروحية تُشعر ايضاً بقداسة نفسهِ (توفي سنة ١٨٨٦) — ومنهم الاب سمعان كورنو (Sim. Corneau) المتوفّى في تعنايل في ٢٤ ك ١ ١٩١٠ فانّهُ كان معروفاً عند العموم

بتواضعهِ العميق فيُدعى برجل الله وابي المساكين. وكانت القداسة تلوح في كلّ شخصهِ واعمالهِ واقوالهِ. ومنهم الاب بطرس سورانيا (P. Soragna) ذو الاصل الشريف والنفس الزكيَّة والفضل العميم. لمَّا انذرهُ الطبيب بقرب وفاتهِ قبِلهُ معدًّا ذلك كبشرى عظيمة — ومنهم الاب يوحنا بلو الذي اجمع كلّ من عرفهُ من الرهبان اخوتهِ ومن الغرباء بسموّ فضلهِ وبساطة قلبهِ ومواظبتهِ على الشغل وخدمة القريب دون انقطاع على آخر انفاسهِ († ١٩٠٤) ومنهم ثلاثة اخوة مساعدين كانوا بيننا مثال حيّ للفضائل الرهبانيَّة: الاخ انطون طالون († ٢٣ حزيران ١٨٨٨) والاخ فرنسيس مرسيه († ١١ ايلول ١٨٨٩) والاخ ماري الياس († ٩ ايلول ١٩٠١)

وكما امتاز هؤلاء بسموّ فضلهم قد برز غيرهم باعمالهم الرسوليَّة كالاب يوسف لابورد (٢٠ شباط ١٨٨٤) الذي انشأ رسالةً في بلاد بين النهرين في مديات وردّ كثيرين من اليعاقبة بعظاتهِ وعجائبهِ وقاسى الاضطهاد لاجل [illegible] بدُور (Fr. Badour) الذي طاف لبنان مع السيّد شرل لافيجري بعد حوادث سنة ١٨٦٠ لمساعدة المنكوبين والعناية باليتامى (٢٠ حزيران ١٨٨٩) — والاب لويس ابوجي (L. Abougit) رسول بكفيا وكسروان († ١٦ تموز ١٨٩٥) مع الاب ريمون (سليمان) استيف († ١٠ ك١ ١٨٧٣) وكالاب ارسانيوس مرل (Ar. Merle) الذي قضى سنين عديدة في حوران ساعياً الى خلاص الدروز وتربية ناشئتهم († ٩ شباط ١٩١٦) — والاب يوحنا فيوروفيش رسول العملة في بيروت († ٤ ايلول ١٨٩٨) — والاب يوسف برنيه (J. Barnier) المرسل الغيور في العكّار وبلاد العلويّين وجهات حمص وطرابلس ولهُ هناك آثار مشهورة من غيرتهِ وصلاحهِ († ١٠ ت٢ ١٩٠٠) — والاب سيرافيم سكُّوني الذي تنقَّل مرشدًا وواعظًا في كلّ انحاء لبنان وبلاد البشارة († ٢٥ آب ١٩١١) وكلّ هؤلاء اشتغلوا مدَّةً في كليَّة القديس يوسف

امَّا الممتازون بعلومهم في هذه الحقبة الخمسينيَّة فليسوا اقلّ عددًا كما تشهد لهم مؤلفاتهم. فمنهم من خلَّفوا التآليف اللاهوتيَّة والفلسفيَّة كالاب راجيس شامبون (R. Champon) المتوفى في († ٨ ك١ ١٨٨٣). والاب فرنسيس ديجاك (Fr. Desjac-ques) († ١٠ ت١ ١٨٩٠). والاب لاون قنسان († ٣ ك١ ١٨٩٨)

وخلَّف غيرهم الآثار التاريخيَّة النفيسة كالاب بطرس مرتين صاحب تاريخ لبنان

في عشرة مجلدات ضخمة (لم تُطبع) . والاب انطون رباط (✝ ١١ أيار ١٩١٣) جامع الآثار التاريخيَّة للنصرانيَّة في القرون الثلثة السابقة والاب فوردريك بوڤيه مؤلف تاريخ سوريَّة (طُبع على الحجر) والاب لويس ابوجي كاتب مقالات تاريخيَّة عديدة

ولغيرهم تآليف حسنة في الآثار القديمة والحديثة والاسفار كالاب يوسف ڤان هام (✝ ١٣ آب ١٨٩٩) والاب يوسف لابورد والاب ميشال جوليان (✝ ١ ك ٢ ١٩١١) صاحب التآليف المتعدّدة في الرياضيَّات والتاريخ والاسفار والآثار . وكالأب هنري دي فونكلايه (H. de Fonclayer) رفيق الكونت دي شامبورد في زيارة الاراضي المقدَّسة (✝ ٢٨ حزيران ١٨٩٢)

امَّا اللغويَّات والآداب فيشهد على نشاط ارساليَّتنا فيهما العدد العديد من المطبوعات التي ابرزتها مطبعتنا الكاثوليكية فسبق لنا تعدادها

﴿تلامذة الكليَّة﴾ منهم من تخرَّج في مكاتبها الفنيَّة كالطب والصيدلة والحقوق والهندسة ولهم نشرتهم الخاصة لا نرى حاجةً الى ذكرهم هنا . ومنهم من درس في الكليَّة في مكتبها الشرقي او في فرعها العلمي نُلمّ بهم الماماً فقط . فمن المكتب الشرقي خرج نحو ٢٠ استاذًا في جامعات اوربَّة ومدارسها العليا في ايطالية (رومية) والمانية (مونيخ) والنمسة (انسبروك) وهولندة (مانستريخ)

وامَّا العلميَّة فتضيق الصحائف عن ذكر تلامذتها يكفي ان نشير الى البعض منهم ممَّن طبَّق ذكرهم البلاد فمن الاكليريكيين غبطة السيّد عمانويل يوسف توما بطريرك بابل على الكلدان . وستَّة من السادة رؤساء الاساقفة ثلثة موارنة وثلثة اقباط . وعدَّة كهنة افاضل ارمن وسريان وقبط وكلدان ولاتين وموارنة . ومن العلمانيين يذكر الجميع بالخير المرحومين الشيخ فريد الخازن والاستاذ نجيب حبيقة وشهيد الدستور الامير محمود ارسلان . وامَّا الافاضل من الاحياء المرتقين فنضرب الصفح بالاسف اختصارًا عن اسمائهم الكريمة مكتفين بذكر صاحب المعالي رئيس الوزارة المصريَّة احمد باشا زيور وصاحب الفخامة رئيس الدولة السوريَّة صبحي بك بركات . رحم الله المتوفّين وجعل الاحياء فخرًا وسندًا للوطن والدين

يا جنّة العلياء!

بمناسبة يوبيل كلية القديس يوسف الذهبي

في المشرقين نشرتِ نورَ هُداكِ ... والغربُ عبّاقٌ بطيب شذاكِ
يا جنّةَ العلياء هل من جنّةٍ ... تُهدي الى العلياء مثلَ جَناكِ
روّحتِ صدرَ الدينِ حتى شاقَهُ ... ما تحملُ النسماتُ من ريّاكِ
من حولكِ الانهارُ يجري ماؤُها ... مُتدافعَ التيّارِ فوقَ ثَراكِ
حتى زكتْ فيكِ الغصونُ وناطحتْ ... قِمَمَ الجبالِ وهامةَ الأفلاكِ
فالعلمُ لاحتْ في البلاد بُدورُهُ ... مُذ فاضَ في جوِّ البلادِ سَناكِ
كم من فتًى حاز العُلى من بعد ما ... أرواهُ من لبَنِ انس...
كم من فتًى نظمَ الحُلى في نحرِهِ ... لمّا مَلأتِ من الجواهر فاكِ
كم من فتى قد صار سيّدَ قومِهِ ... وفؤادُهُ يَهفو الى مَرآكِ
يُثني عليكِ وقلبُهُ بكِ هائمٌ ... ولسانُهُ لَهِجٌ بنشرِ حِلاكِ
لكِ مُهجةُ الأمّ الرؤومِ وطالما ... أنسى حَنانَ الأمهاتِ هَواكِ
إن يُكبرِ الناسُ الوفاءَ فإنّما ... قد أكبروا عند البلاءِ وفاكِ
فلكم أعنتِ على الزمان وصرفِهِ ... وبذلتِ في مَدَدِ الضعيف قُواكِ
أو يُنكرُ الشرقيُّ ما أوليتِهِ ... مما يُخلّدُ في الورى ذِكراكِ
أو يَجحدُ الأبناءُ فضلَكِ والعدى ... شَهِدوا بما قد أغدقَتْ كفّاكِ
كم من يتيمٍ كان عالةَ قومِهِ ... فغدا إمامَهُمُ بفضلِ غذاكِ
كم جاهلٍ امسى مَنارَ بلادِهِ ... بعد اقتباس العلم في مغناكِ
رشفَ المعارفَ وهو ريّانُ الحشا ... حتى ارتوى من ماءِ عينِ سَماكِ
كم تائهٍ أمسى على نَهجِ الهُدى ... لمّا تكحّلَ طرفُهُ بهُداكِ
لولاكِ سادَ الغيُّ في اصقاعنا ... فطعنتِ حَبّةَ لُبِّهِ بقَناكِ
للحكمةِ الغرّاءِ فيكِ منائرٌ ... وهّاجةٌ تَهدي الى مَبناكِ

للعلم والآداب فيكِ مَشارعٌ ... سكرَتْ بسلسَلِ مائها أبناكِ
سقياً لِمن ترعاهُ عينُكِ في الدجى ... وتقودُهُ للمفخرات يداكِ
رمقتْكِ لاحظةُ السماء من الصبا ... ووقت من الزلل الذميمِ خُطاكِ
فنهجتِ في دنياكِ اقومَ مَنهجٍ ... وتبعتِ ما يَرضى بهِ مولاكِ
من يَتبعِ الحقَّ المُبينَ فانما ... يَطأُ الغواةَ كما وَطِئتِ عداكِ
يا غابةَ الآسادِ كم من جَحفلٍ ... قد سار للهيجاء تحت لِواكِ
خاض المَعامعَ بين أطراف الظُّبى ... تَحميهِ من عُصَبِ الفساد ظُباكِ
أمَنارةَ الأبحار هل من مَركبٍ ... الا اهتدى في شرقنا بضياكِ
فلأنتِ مرفأُنا الامينُ فإنْ سطا ... جيشُ المعاطب نحتمي بحِماكِ
ولأنتِ معقلُنا الحريزُ اذا عدا ... يوماً علينا في الوغى أعداكِ
طاردتِ أدواءَ النفوس فأدبرَتْ ... وجنودُها لم تخشَ غيرَ دراكِ
يُعيي الأساةَ الداءُ إن يُزمنْ وما ... أعياكِ داءٌ عالجَتْهُ نُهاكِ
لم تحفلي بالنازلاتِ صَواعقاً ... والعاصفاتُ تهبُّ حول فِناكِ
إن كان قلبُكِ في النوائب جندلًا ... أفيَستطيعُ الحاسِدونَ أذاكِ
يا نجمةً عَشِقَتْ محاسنَها العُلى ... إنَّ العُلى منذ الصبا تهواكِ
آثاركِ الحسناء قد رُقِمَتْ على ... ألبابنا تُخزي الذي عاداكِ
لو لم يكن للماقتين غشاوةٌ ... تُعمي العيونَ لأعظموا مسعاكِ
سيري على منحاكِ تحرسْكِ العلى ... فالشرقُ يرفع شأنَهُ منحاكِ
واطوي من الأعصار ما شاء الألى ... يرعَونَ بالمُهجاتِ عهدَ وِلاكِ
ابدًا تتوقُ الى لِقاكِ عيونُنا ... وقلوبُنا تحلو لها نجواكِ
وعلى رِضاكِ دماؤُنا موقوفةٌ ... والموتُ عذبٌ في سبيل رضاكِ
نَفديكِ بالأرواح غاليةً ولا ... نهوى سوى أن نستميتَ فداكِ
يوبيلُكِ الذهبيُّ قد نشر الهنا ... في كل قلبِ شاعرٍ بنداكِ

الخوري بطرس البستاني استاذ البيان في كليّة القديس يوسف

ترجمة

السيّد فرنسوا بيكِهْ

لحضرة الاب بطرس ساره الراهب اللبناني (تتمَّة)

الاسقف والقاصد الرسولي

﴿السفر من مرسيلية الى حلب﴾ مرَّت السنة ١٦٧٨ على السيد ف [illegible] وهو في انتظار موعد السفر كأنَّهُ يتقلَّب على جمر الغضا . فانحاز الى مر [illegible] مختلياً فيها

وفي تلك الغضون مُني بوفاة المسيو غردون تلميذهِ الذي كان اجتمع بهِ ليتفرَّغ معهُ الى الامور الروحيَّة . مات عن ٨٤ سنة ملأها اعمالَ برّ وقداسة واوصى في وصيَّتهِ الاخيرة أن تُوزَّع ورثتهُ على الفقراء وعهدَ بتنفيذ وصيَّتهِ الى السيّد بيكه . فأسف هذا كثيرًا على وفاتهِ وأنفذ كل مرغوباتهِ

وقد أتتهُ ايضاً في زمن إعدادهِ لسفرهِ براءة من البابا يوسّع لهُ سلطتهُ ويقيمهُ زائرًا لثلث سنين على قبرس وحلب وطرابلس ولبنان وعلى جميع الامكنة الواقعة في اسقفيَّة نخشيثان في العجم فزادهُ هذا العبء الجديد تشوّقاً الى السفر للقيام بواجبات مهمَّتهِ وقد عيل صبرهُ في انتظار السفير الذي كان قصد السفر على سفينة للملك ماخرة الى الشرق

لم يحضر سفير الملك لويس الرابع عشر الى مدينة طولون التي منها كان السفر الى ارخبيل اليونان فسوريَّة الَّا في اوائل ايلول من السنة ١٦٧٩ فاسرع السيد بيكه ليرافقهُ واخذ بصحبتهِ ثلثة كهنة من جماعة الاوراتوريّين ارادوا ان يسيروا في رفقتهِ ولم يقبل لخدمتهِ سوى خادم واحد

ركب في ١١ ايلول ١٦٧٩ مع حاشيتهِ السفينة المدعوَّة باسم القديس

اوغسطينوس فوجد فيها الشفاليه دَرْڤيو (Ch. d'Arvieux) الذي كان تعيّن لقنصليّة حلب خلفاً للقنصل بارون وهو صاحب تلك المذكّرات الشهيرة الموسومة باسمهِ في ستّة مجلّدات بديعة عن الشرق واحوالهِ المختلفة. أما السفير المرسل الى الباب العالي فكان اسمهُ دي غِلياراغ (de Guilleragues) وقد ركب سفينة خاصّة الملك

بلغت السفن جزيرة مالطة في ٢٦ من الشهر بعد عاصفةٍ شديدة انهكت قوى السيّد بيكه إلّا انَّ ما لقيهُ في الجزيرة من الاكرام والعناية لدى الرهبان الكرمليين اراحهُ قليلاً. وقد سُرَّ في ديرهم لوجودهِ بين رهبانهم ابنَ داود الشهيد الحلبي الذي مرَّ لنا خبر وفاتهِ الصالحة وذكر ولدهِ الذي كان هو سعى الى تسفيرهِ الى فرنسة وترهُّبهِ. وزار في الجزيرة رئيس فرسان القديس يوحنا واعيان البلد فبالغوا بالاحتفاء بهِ ورافقوهُ الى المحلّ الذي احتلّهُ القديس بولس الرسول كما ورد في سفر الاعمال (٢٨: ١-١٠) فطلب الى الله ان يشركهُ بغيرتهِ الملتهبة

استأنفت السفن سيرها في ٦ ت ١ وانضمَّ اليها سفن غيرها حتى بلغ عددها العشرين مركباً فتعزّزت بجملتها لمقاومة قرصان الجزائر الذين كانوا يطاردون السفن الافرنسيّة فنجوا من شقائهم إلّا ان الانواء البحريّة التي ثارت عليهم كادت تودي بحياتهم فتفرّقت بعض سفنهم وصدم بعضها صخور الجزائر فتحطّم وكادوا ييأسون من الخلاص الى ان بلغوا احدى جزائر اليونان جزيرة سيفالونية فمكثوا فيها ثمانية أيام ينتظرون هدوء البحر. وكان السيّد الاسقف بيكه خائر القوى فلقي هناك قليلاً من الراحة ومع ضعفهِ لم يشأ ان يهمل تقدمة القداس يوماً واحداً

ثمَّ واصلت السفن سفرها الى جزيرة سريغو (Cerigo) حيث ودَّع السفير السيّد القاصد ليسافر الى الاستانة على سفينتهِ الملكيّة. اما سفينة السيّد فرنسوا بيكه فسارت الى جهات سوريّة فوصلت الى الاسكندرونة في ٦ ت ٢ فنزل المدينة وقضى في احدى مزارعها عشرة أيام ريثما تتألّف قافلةٌ لتسافر الى حلب

فلمّا انتظمت سافر بصحبتها مارًّا على انطاكية فامتعض من نظرهِ لتلك الحاضرة الشهيرة التي كانت من اكبر حواضر النصرانيّة وهي الآن شبه قرية ذليلة لم يبقَ من كنائسها الشهيرة الّا الأنقاض

ما عرفت حلب بقدوم قنصلها القديم بعد غيبتهِ ١٨ سنة حتى هبّت كبارها

وصغارها على اختلاف الملل والمذاهب الى استقبالهِ بأبهى مجالي الفخر والابتهاج . والقلم يعجز عن وصف ما كان يخالج قلوب اهل الشهباء من شواعر المحبة والاعتبار نحو من عرفوهُ مثال التفاني وعنوان الشرف والاستقامة وآية السخاء والكرم وعون التاعس وسلوان البائس . ولم يكن هو دونهم فرحاً عند رؤيتهم وقد اتاهم اليوم كرسول السلام

وانَّما امتزج فرح السيّد بفقد اثنين من الثلثة الكهنة الذين صحبوه فقضى واحدٌ نحبهُ عند وصولهِ حلب واضطرّ الثاني الى الرجوع الى وطنهِ لجهلهِ لغة البلاد فبقي معهُ واحدٌ الاب كزمون الذي رافقهُ الى العجم فكتب الى رئيسهم العام يطلب قدوم غيرهم

﴿ السيد بيكه في حلب ﴾ قضى فيها نحوًا من سنتين بصفة زائر رسولي نَعِمَتْ فيهما حلب وسكّانها بحضورهِ واستفادوا من اعمال غيرتهِ وتفانيهِ في صرف المجهود في تثبيت ابناء الكنيسة بالايمان وردّ المنفصلين عنها

وقد مرَّ لنا ذكر نصارى حلب وحنان السيد بيكه على اهلها الموارنة في عهد تنصليتهِ ودفاعهِ عنهم واطرائهِ لمحامدهم وخصوصاً لثبات تعلّقهم بالكرسي الرسولي ووجد عند عودتهِ انهم لا يقلّون عن مئتي عيلة . فحرص على شؤونهم وشمل بعنايتهِ اهل لبنان بصفة كونهِ زائرًا رسوليًا لهُ

وكان الروم اوفر عددًا من سواهم بين الطوائف المسيحيّة يتراوحون بين ثمانية عشر الى عشرين الف نسمة . وقد وجدهم السيّد بيكه منقسمين الى حزبين ينتمي كلٌّ منهما الى بطريرك خصوصي يُدعى الواحد كيرلس وهو حفيد البطريرك مكاريوس بن زعيم والآخر ناوفيطوس مطران حماة وكان كلاهما اخرج فرمانًا من الاستانة لنفسهِ وتفاقم الشرُّ ودامت الفتنة عدَّة سنين الى ان سعى السيّد بيكه الى اصلاحهما فتنازل ناوفيطوس لخصمهِ على شرط ان يفي لهُ ديونهُ

وكذلك الارمن وعددُهم من عشرة آلاف الى ١٢ الفًا تقرَّب اليهم ليثبّت لهم ضلالهم في قضية طبيعتَي السيّد المسيح

امَّا السريان فكان بطريركهم اندراوس اخيجان توفّي قبل وصولهِ بنحو سنتين فاختار الكاثوليك بمساعي المرسلين الكبوشيين واليسوعيين خلفًا لهُ اغناطيوس بطرس

شاهدين اسقف القدس. ثمَّ نال لهُ المرسلون من رومية الدرع المقدَّس لتثبيتهِ . فلمَّا وصل السيّد بيكه في تلك الاثناء الى حلب عُقدت لهُ حفلة تقلَّد فيها الدرع المقدَّس بحضورهِ وحضور اساقفة جميع الطوائف بالحلل الحبريَّة. وخطب السيد بيكه بالعربية مثنياً على فضائل البطريرك وداعياً للطائفة السريانيَّة بالنجاح . ثمَّ تصدَّى السيد المذكور لمساعي حبيب الاسقف اليعقوبي الذي ارسلهُ بطريرك اليعاقبة لمناهضة البطريرك بطرس فأشار عليهِ بيكه بالسفر الى الاستانة لكي ينال بواسطة سفير فرنسة فرماناً يثبتهُ في رتبتهِ . فحصل على ما طلب وعاد ظافرًا الى حلب(١) وارسل الى البابا اينوشنسيوس الحادي عشر صورة ايمانهِ واعلن بشكرهِ الى السيد بيكه ثمَّ دعاهُ ليرئس حفلة عيد البشارة في كنيستهِ . فتوثَّقت عرى الصداقة بينهُ وبين السيد البطريرك وكتب في امرهِ الى جلالة الملك لويس الرابع عشر فارسل لهُ إحساناً يبلغ مئتي ريال

ومن المساعي الطيّبة التي تكلَّفها السيّد بيكه اصلاح خلاف كان وقع بين المرسلين اليسوعيين والفرنسيسيين بخصوص خدمة معبد القنصليَّة في حلب فعرض الامر على رومية لتبتَّ فيهِ حكمها

ومن اعمالهِ المشكورة ايضاً في حلب تثبيتهُ للعابدات اللواتي كان الكبوشيُّون تولّوا ارشادهنَّ وكنَّ نحو عشرين عابدة فادخلوهنَّ في عداد راهبات رهبنتهم . فزارهنَّ الاسقف بيكه وألقى عليهنَّ ارشادًا بليغاً ثبَّتهنَّ فيهِ على دعوتهنَّ . فشكرْنهُ شكرًا جزيلًا لتلطُّفهِ

وكان السيّد بيكه لا يدع فرصةً لالقاء المواعظ في كنائس حلب وكان على الاخص يهتمّ بشرح التعليم المسيحيّ في الشعب لما كان يراهُ من جهلهم لحقائق الدين. فكان الجمهور يتقاطر الى استماع كلامهِ والارتشاد بتعاليمهِ

﴿سفر السيّد بيكه من حلب الى العجم﴾ كان نصارى العجم من ارمن وسريان ونساطرة يكاتبون السيّد بيكه ويطلبون اليهِ ان يعجّل فيذهب الى جهاتهم ليُعنى بامورهم الروحية . وكانت هذه ايضاً نيّتهُ إلَّا انهُ لم يحصل على الجواز من الدولة لسفرهِ فطلب من ملك فرنسة ان يعيّنهُ سفيرًا خارق العادة لدى شاه العجم . فصادف اقتراحهُ هذا استحساناً في باريس ورومية معاً وكتب الملك لويس في ذلك الى سفيرهِ

١) اطلب السلاسل التاريخيَّة للفيكنت فيليب دي طرازي (ص ٥٩–٦٨)

في الاستانة والى شاه العجم موصياً بهِ وواعداً بتقدمة بعض الهدايا

﴿مروره في ديار بكر﴾ ولمَّا استحضر كلَّ معدَّات السفر غادر حلب في اواسط نيسان ١٦٨١ وكان فراقهُ مرًّا على الحلبيين ووداعهم لهُ مؤثرًا ايَّ تأثير . وبعد مسير خمسة عشر يوماً وصل ديار بكر في غرَّة ايَّار فاستقبلهُ السيد يوسف بطريرك الكلدان واساقفة الارمن والمرسلون الكبوشيّون استقبالاً تجلَّت فيهِ مظاهر العظمة والتكريم اللذين اشترك فيهما جميع الطوائف على اختلافها . ودعاهُ مطران الارمن الى قداس حافل خطب فيهِ عن فضائل السيّد بيكه وشبَّههُ بملاك مرسل من الله لتعزية شعبهِ

امَّا البطريرك يوسف الاوَّل فقام مع كلّ طائفتهِ بخدمتهِ مدَّة حلولهِ في دياربكر . وكان القاصد الرسولي يجلُّ ذلك الحبر القديس ويثني الثناء التامَّ على ثباتهِ في الايمان على الرغم ممَّا لقيهُ من الاضطهادات وضروب المحن من خصومهِ النساطرة الذين تآمروا على قتلهِ غير مرَّة . فكان مرور السيّد بيكه في آمد عضداً جديداً لروحهِ وللقطيع الصالح التابع لهُ وخطب مبيّناً اضاليل تبعة نسطور وصحَّة تعليم الكنيسة . وقد كتب السيد بيكه رسائل الى رومية يتَّسع فيها عن محامد البطريرك يوسف . واستطاع هو ان يساعدهُ في وفاء الدين على كرسيّه . وقد عاش البطريرك زمناً بعد ذلك . ثمَّ طلب من الكرسي الرسولي الاستقالة عن البطريركيَّة لعجز الشيخوخة وذهب الى رومية وفيها مات ميتة الابرار سنة ١٧٠٧ ودُفن في مصلّى مجمع انتشار الايمان (١

سافر الاسقف بيكه من دياربكر في ٧ حزيران مع حاشيتهِ وترجمانٍ قدَّمهُ لهُ الآباء الكبوشيّون وهو كاهن سرياني كاثوليكي من ماردين يدعى سَفَر يعرف اللغات العربيَّة والتركيَّة والفارسيَّة والارمنيَّة وكان على جانب عظيم من التقوى . فاتَّخذهُ رجل الله بملء الرضى وجعل اليهِ تدبير امور منزلهِ فقام بهذه الوظيفة بكل دقة وامانة بل افاد التاريخ بما دوَّنهُ عن رحلة السيد بيكه وتفاصيل اعمالهِ

كان سفر السيّد بيكه على طريق ارزروم الى اريفان فقطعهُ بسبعة عشر يوماً

١) اطلب ترجمتهُ لتلميذهِ باسيليوس عبد مطران آمد (في المشرق ١٩ [١٩٢١] : ١٢٤– ١٢٨)

متحملاً بصبر عجيب مشاقَّ السفر . فاستقبلهُ بارزروم اسقفا الارمن الكاثوليك والغريغوريين واعيانهما فوجدوا في لطفهِ ما عطّر لسانهم بثنائهِ واهداهم بعض الكتب التقويَّة والجدليَّة في لغتهم

وكان يودّ لو يبقى مدَّة في ارزروم وهي من حواضر تركيَّة لكنَّهُ راى انَّ عمَّال البلاد يطمعون في هباتهِ الماليَّة لِما رأوهُ من بهاء موكبهِ وحاشيتهِ فعدل الى دير منفرد للارمن ينتظر القافلة التي تسير بهِ الى تبريز . فوجد هناك الاسقف ڤرتان الكاثوليكي الذي كان تخرَّج في مدرسة انتشار الايمان فرحَّب بهِ واكرم مثواه

ثمَّ انضمَّ الى القفل وسار بمعيَّتهِ فنزل في احدى مراحلهِ ديرًا آخر للارمن على ضفَّة نهر دجلة يُعرف بدير القدّيس يوحنَّا الصابغ كان يرئسهُ مطران يدعى اسحاق فأراه كنيسةَ الدير وهي من اجمل كنائس الارمن وقد كان اخرب جانباً منها تيمورلنك في اواخر القرن الرابع عشر غير ان كرم امير تلك البلاد المدعو محمَّدًا وهو من اصدقائهِ أنفق عليها من مالهِ فرمَّمها وأصلحها . وعند خروجهِ من الكنيسة عاين جمهورًا كبيرًا كان اجتمع في ساحتها لسُوقٍ شهيرة كانت تقام هناك . ورأى على جدار الكنيسة كتابةً ارمنيَّةً كان يؤخذ من مؤدَّاها انَّ ذاك البناء راقٍ الى عهد الاسقف اسرائيل في القرن الخامس للمسيح وانَّ رسول الارمن القديس غريغوريوس المنوّر كان صبغ هناك بمياه المعموديَّة ١٢،٠٠٠ من الوطنيّين في عهد الملك تيريدات

ثمَّ سار اسقف سيزاروبوليس مع القفل فبلغ بعد يومين الى قصر يُدعى « عين قلعة » وكان مُلكاً لبايزيد احد امراء الدولة العثمانيَّة . وهو من اجمل الابنية مشيَّد فوق صخرٍ عالٍ ولهُ القاعات الفخمة والاروقة الواسعة . فلمَّا نزلوا اتى العمَّال ليستقضوا الرسوم المعتادة . فاستعدُّوا لأدائها واذا برُسُل غير الاوَّلين أتوا واستدعوا الاسقف الى دار بايزيد امير القلعة وهو شيخ وُقور فاضل فصعد الى قصرهِ مع حاشيتهِ وترجمانهِ وقلبهُ يُوجس خوفاً من تلك الدعوة لئلَّا يسومهُ الامير خسفاً . على ان الامر كان على خلاف ما توهَّمهُ فبسط الامير قلبهُ واجلسهُ قربهُ وجاذبهُ اطراف الحديث ثمَّ دعاهُ الى عشاء فاخر واكرمهُ اكرامهُ لأعظم الامراء وألحَّ عليهِ في ان يقيم عندهُ مدَّةً فاعتذر بكونهِ مضطرًا الى السفر . وعرض على ترجمانهِ الكاهن سَفَر ان يقيمهُ في قصرهِ مدبِّرًا ومعلماً لاولادهِ فشكرهُ مُعْرِباً عن اسفهِ لعدم الاجابة الى طلبهِ

وهو في خدمة الاسقف . ثمَّ ودَّعوا الامير وانضمُّوا الى القافلة في الساعة الثالثة من الليل

﴿ وصولهُ الى نخشيڤان ﴾ وما لبث ان انقسم القفل فذهب معظمهُ على طريق تبريز وعدل الاسقف وحاشيتهُ الى طريق اريڤان مارًّا على مدينة «وُشا كيليسه» الواقعة على حدود العجم حيث سُرَّ باضافته ثلثة ايام اساقفةٌ ورهبانٌ ارمن باسيليّون في دير على اسم القديس غريغوريوس المنوّر . ثمَّ وصل بعد ستَّة ايام الى مدينة اريڤان وهي من قصبات بلاد العجم في ارمينية العليا . ولما بلغ حاكم البلد خبرُ قدومهِ أرسل يدعوهُ الى منزلهِ فضافهُ احسن ضيافة مدَّة خمسة ايام . وكان سفرهُ منها في غرَّة آب الى نخشيڤان وهي مدينة كبيرة يزعم الارمن انها اوَّل مدينة بُنيت عقيب الطوفان وكانت تخص الاتراك فطردهم منها ملك العجم الشاه عبّاس ودمَّر ابنيتها . فلم يَبِتْ فيها السيّد بيكه وانَّما زار واليها فقط وتابع سيرهُ الى مدينة ابا نزير وهي اعظم مدينة يسكنها الارمن الكاثوليك في تلك الانحاء يسوسهم فيها اسقف من طائفتهم . فاسرع الاهلون الى استقباله باهازيج الفرح وساروا بهِ الى دير الارمن حيث نزل ضيفاً كريماً

وتلك المعاملة قد توفَّر فيها عدد الكاثوليك وهم يمارسون واجباتهم الدينيَّة بكامل الحرّيَّة منذ اربعمائة السنة . والفضل يعود في ذلك الى فرع من رهبنة القديس دومنيك يُعرف رهبانُها بالاخوة المتَّحدين يرتقي تاريخهم الى زمن البابا يوحنا الثاني والعشرين الذي بلغهُ سنة ١٣١٨ انَّ قسماً من البلاد الواقعة تحت حكم التتر في ارمينية لا راعيَ لهم ويطلبون مَن يخدمهم في الروحيَّات فارسل البابا المذكور بعض الرهبان الدومنيكان اليهم وسقَّف واحداً منهم على مدينة مراغة اسمهُ برتلماوس البولوني الملقَّب بالابالياتي فسار اليهم مع اخوتهِ واجتذبهم الى الايمان القويم بكلامهِ وقداسة حياتهِ وردَّ احد رؤساء اديرتهم المدعو اسحاق وامير مدينة تُدعى كرنة المدعوَّ جرجس فساعدهُ كلاهما في نشر الدين الكاثوليكيّ بين مواطنيهما

وكان للامير ابنَ اخ يدعى يوحنا . فهذا عرف انَّ اقرب وسيلة لتثبيت الايمان في تلك الانحاء ان يُنشئ رهبنةً جديدة متَّحدة مع رومية دعاها باخوة القديس غريغوريوس المتَّحدين ثبَّتها البابا يوحنا ورأس عليها يوحنا المذكور وسمح لهم بان يجروا في ترتيبهم

وقوانينهم على نظام قوانين الرهبنة الدومنيكيَّة. ثمَّ التمسوا من البابا اينوشنسيوس السابع بعد مدَّة ان يعتبرهم الدومنيكان كأحد فروع رهبانيَّتهم ودُعي اقليمهم «اقليم نخشيفان(١

فحلَّ اسقف سيزاروبوليس بين اولئك الرهبان الذين تهلَّلوا فرحاً لقدومه. وكان اسقف نخشيفان قد توفي منذ ثمان سنوات ففوَّضهُ البابا اينوشنسيوس الحادي عشر ان يقيم لهُ خلفاً ويزور تلك المقاطعة. ولمَّا جمع الرهبان وكهنة الرعايا اصحاب الاصوات وطلب اليهم ان يختاروا لهم اسقفاً اجمعوا على انتخاب السيّد بيكه ولم يريدوا غيرهُ الى ان اقنعهم ان يختاروا لهُ مساعداً يستنيبهُ عنهُ في تدبير تلك الابرشيَّة التي كان عدد اهلها نحو عشرين الفاً فاختاروا لتلك النيابة احدَهم الراهب «سبستيان كناب» الالماني الاصل. فلمَّا سُقِّفَ وتسلَّم تدبير رتبتهِ قام السيّد بيكه وتجوَّل في انحاء تلك العاملة يزورها ويرشد شعبها ويشرح لهم كلَّ يوم التعليم المسيحي ويثبِّت بالميرون صغارَهم ويُصلح ما طرأ عليهم من الخلل ويتوسَّل الى امراء البلاد بان يكفُّوا عن اولئك الكاثوليك معاملاتهم الظالمة في دفع الاموال الاميريَّة ومعاقبتهم بالحبس والضرب. وطلب الى شاه العجم ان يُبطل سُنَّةً جائرة كان سنَّها قبلًا وفتحت باباً واسعاً للجَوْر وذلك انهُ امر بان يُعطى كلُّ من يُسلم مارقاً من دينه حقوقَ الوراثة على كلّ اموال عيلتهِ. فخدع طمعُ المال كثيرين فأسلموا. فتوسَّط الاسقف الى شاه العجم ونال منهُ الغاء تلك السُّنَّة الفظيعة

﴿سفر الاسقف بيكه الى اصفهان﴾ قضى السيّد بيكه في ابرشيَّة نخشيفان خمسة اشهر وهو يطوف في تلك الجهات لا يكاد يذوق راحةً والجميع يتقاطرون اليه يعرضون عليهِ كلَّ مهامّهم المادّيَّة والروحيَّة فكان يقضي الأيَّام في خدمتهم بلطف وتفانٍ استعبد بهما قلوب الجميع

ولمَّا حان الوقت لسفرهِ وكان قد قرب فصل الشتاء. رأى الاهلون انحرافاً في صحَّتهِ فتوسَّلوا اليهِ بان يؤخّر سفرهُ الى الربيع ولم يزالوا يلحّون عليهِ ذاكرين لهُ الاخطار التي تحيق بالمسافرين في ذلك الفصل حتى اجاب الى ملتمسهم ثمَّ تحقَّق قولَهم بما قاساهُ

١) قد نشر حضرة الاب تورنبيز تاريخ هذه الرهبانيَّة في مجلَّة المشرق المسيحي
F. Tournebize : Les Frères Uniteurs ou Dominicains arméniens (ROC 1921)

في ابارنير من نفحات الرياح ومعرّة البرد فتراكمت الثلوج وانقطعت المواصلات بين انحاء البلاد وكان لا يكاد يستدفئ وهو ينام على الحضيض ويسكن في غرفة رطبة باردة ويقيم باكرًا الذبيحة الالهية في الكنيسة حيث كان يجمد شكل الخمر في كأسه

ومع هذا لم ينقطع عن الشغل بل كان يقضي نهاره إمّا بالصلاة وإمّا بالكتابة والدرس عند فراغه من خدمة الاهلين. وفي تلك المدّة رُقي الى درجة الكهنوت بعض الرهبان الدومنيكيين وكُرّس في يوم خميس الاسرار الميرون المقدّس واحتفل برتبة غسل الاقدام وقام بنفسه يخدم على المائدة الفقراء الذين غسل ارجلهم. ثمّ احتفل معهم بعيد الفصح احتفالًا باهرًا وكان وقوعهُ في تلك السنة في ٢٩ آذار

وفي غضون ذلك اتاهُ كتاب من الملك لويس الرابع عشر في طيّه كتاب آخر الى شاه العجم يخبره بان الهدايا المرسلة ستصلهُ قريبًا. فاستعدّ لسفره وبعد قليل توجّه الى اصبهان مارًا في طريقهِ على تبريز. وكان يسير في رفقتهِ راهبان من الدومنيكيين احدهما رئيس رسالة نخشيڤان والآخر رئيس دير ابارنير. وعرّج في طريقهِ على بعض الامكنة اجابةً لرغبة السكّان وزار في بلدة اغوليس كنيستها البديعة وتبارك باكرام ذراع القديس توما الرسول المصون بين ذخائرها واقام هناك الاعياد الفصحيّة على الحساب الشرقي

وكان بلوغهُ الى تبريز في ٢٨ نيسان وهي من حواضر تلك البلاد ومن اوسع مدن الشرق تجارةً. وكان للآباء الكبوشيين فيها دير فحلّ عندهم ضيفًا جليلًا. وبعد ان سلّم براءةً من المجمع المقدّس لاسقف تبريز الارمني وتحقّق صدق ايمانهِ اقام في كنيستهِ قداسًا حبريًّا حضرهُ جمهور غفير فألقى عليهم عظةً نفيسة فسّرها لهم ترجمانهُ الكاهن سَفَر. ثمّ زار حاكم المدينة فتحفّى بهِ وبالغ في اكرامهِ ودعاهُ الى تناول الطعام على مائدتهِ. فشكرهُ السيّد الاسقف وطلب اليهِ ان يخصّ بنظرهِ الكاثوليك الذين تحت امرهِ. وقد جرت في تبريز كرامةٌ على يدهِ اذ شفى بصلاتهِ رجلًا من الارمن الغريغوريين من وجع اليم في اذنيهِ وردّهُ بذلك الى الايمان الكاثوليكي

وقضى السيّد بيكه شهرًا في تبريز. ولما سافر منها وعرف الحاكم انهُ مُرسل كسفير ملك فرنسة الى سيّدهِ الشاه اضطرّهُ ان يقبل في رفقتهِ مهندارًا يمهّد لهُ طريقهُ. غير انهُ استاء من سوء معاملة المهندار للسكان فردعهُ الاسقف الصالح واوجب عليهِ

ان يردّ لهم ما اغتصبهُ من مالهم . ولمّا عرف الاهلون نزاهتهُ وفضلهُ اقبلوا على اكرامه في المدن التي مرَّ فيها كسلطانيّة وقمّ وقاشان

﴿السيد بيكه في اصبهان﴾ وصل السيّد بيكه الى اصبهان بعد ٤٢ يوماً قضاها في طريقهِ فصار لهُ عند دخولهِ استقبال حافل من قبل الدولة واهل المدينة وخصوصاً من الكاثوليك . فلمّا دخلها اخذت سلامهُ فرقةٌ من ضباط البلاط الملوكي وساروا به الى قصر أعدُّوهُ لهُ ولحاشيتهِ على نفقة الدولة

اصبهان عاصمة العجم وحاضرة المملكة ومركز الشاه يحيط بها سورٌ منيع وهي متّصلة بمدينة جولفا (جي) مقرّ الارمن يفصلها عنها نهرُ زَندران الذي فوقهُ جسرٌ محكم الصنع . وفي جانبي الطريق الى المدينة اشجار وارفة الظلّ وحدائق غنّاء للشاه . امّا اهل المدينة فمسلمون من اهل الشيعة

كان هذا السفر الطويل أنهك قوى الاسقف فاعتلّ أيّاماً ولزم الفراش وكذا اصاب بعض رفقتهِ منهم الكاهن كزمون الذي عرض لهُ داء عياء . ففُجع الاسقف بوفاتهِ بعد شهر ونعاهُ الى جماعتهِ في باريس طالباً ان يرسلوا لهُ كاهناً آخر عوضاً عنهُ

ولمّا تعافى السيد بيكه اجتمع بالمرسلين اليسوعيّين والكبوشيّين في جُولفا واستطلعهم طلع احوالهم وعلم منهم ان رسالتهم تبعث الامل في ارتداد كثيرين من المنفصلين الى الوحدة الكاثوليكية . ثمَّ خصّ قسماً من زمانهِ لزيارة ارباب الطوائف واعيانها وهو في انتظار الهدايا التي بشَّرهُ الملك لويس الرابع عشر بارسالها الى الشاه ليمكنهُ ان يزورهُ رسميّاً . وكان الشاه منشغلاً وتتنذر هو وحاشيتهُ باستقبال ملك التتر الذي تنازل عن عرشهِ لشقيقهِ ومرَّ باصفهان ليذهب الى مكّة ويقوم بفريضة الحجّ . فأمر الشاه لاكرامهِ بمهرجان عظيم وجرت مناورات وألعاب فروسيّة وغيرها تقاطر الناس لمشاهدتها وتبادل الملكان الهدايا الفاخرة ودامت تلك الاعياد أيّاماً الى ان سافر ملك التتر مشيَّعاً بموكب عظيم

﴿زيارة بيكه لشاه العجم﴾ على انَّ السيّد بيكه لم يمكنهُ بعد ذلك ان يتأخر عن المثول امام الشاه عبّاس فبلّغهُ أسفهُ عن عدم ورود هدايا ملك فرنسة وطلب ان يعيّن لهُ يوماً يدخل عليهِ فيقدّم لهُ فرائض التجلّة والاكرام فسُرَّ الشاه بطلبهِ

وقرَّر لمثوله يوماً من اعيادهم دعاهُ فيه الى مأدبة فاخرة مع جميع سفراء الدول في اصفهان

فاستعدَّ السيد بيكه لهذه المواجهة واضطرَّهُ المرساون وجميع النزَّالة الاوربيَّة في اصفهان الى ان يتَّشح بثياب من الديباج والقصب كسفير مالك فرنسة مع نفوره من هذه الملابس ورافقهُ ستَّة من الفتيان البسوهم الحرير واركبوهم بخدمته ممتطين الخيل المطهَّمة عليها السروج المزركشة. وفي الموعد المضروب سار السيد بيكه بموكب حافل الى قصر الملك مارًّا بشوارع المدينة حتى بلغ الى ميدان رحب الارجاء تحيط بهِ الابنية الفخمة على احسن طراز شرقيّ يسكنها حرَم الملك وحشمهُ . وامام الابنية رواق جميل على جانبه المخازن المشحونة بكل اصناف التحف الشرقيَّة والعجميَّة. وفي الصدر قصر الملك وواجهتهُ مزدانةٌ بالقاشاني الملوَّن المنقوش بنقوش غاية في الحسن والتفنُّن. وامام القصر جوادُ الملك مسرج بوشيٍ من الذهب والجواهر وبقربهِ أُسود وثيران وفيلة مربوطة بسلاسل فضيَّة بينها الحيوان المعروف بوحيد القرن

فلمَّا بلغ الموكب مراقي القصر انشقَّ صفَّين مرَّ السفير بينهما وولج قاعةً كان يجتمع فيها سفراء الدول فجلس في مكانٍ أُعدَّ لهُ. وما عتَّم ان أتى وزيران من قبل الملك فأدخلا السفراء الواحد يتلو الآخر الى قاعة المقابلة واذا هي مزدانة بافخر الرياش مفروشة بطنفسة من الدِمقس قطعة واحدة وسقفها منقوش بالنقوش الخالبة للابصار باللونين الذهبي والسنجونيّ وفيها المرايا الجميلة تنعكس فيها صور القاعة . وفي وسط ذاك النادي حوضٌ كبير يقيس نحو ستَّة اقدام مربَّعة على كل زاوية منهُ عمود محلًّى بالذهب يعلوهُ مصباح من البلَّور . والماء يفور منهُ على ابهى مثال

وكان الملك جالساً في صدر القاعة على عرش مرصَّع بالحجارة الكريمة وعلى جانبَيه سبعة وزراء واثنا عشر من الفتيان حسان المنظر. فدخل السيد بيكه في اثر الجميع ومثَلَ امام الشاه منحنياً باحترام ثمَّ قدَّم لجلالته كتاب ملك فرنسة بغلاف ثمين وفاه بخطاب بليغ معرباً عن غاية سفارته وهي رغبة مولاه في توثيق عرى المودَّة والعلاقات القديمة بين المملكتين. واتَّسع في ذكر ما للشاه من المحامد والصفات ودعا لهُ بتأييد الملك وتخليد عرشهِ اسعاداً لرعيَّته وتمجيداً لوطنهِ

ولما اتمّ السيد بيكه خطابهُ تقدّم الكاهن سَفَر ففسَّره للشاه بالتركيّة فهش الملك لاستماعهِ ثمَّ قرَّب الخطيبَ الى شخصهِ ليحدّثهُ ويسألهُ عن احوال اوربَّة وعن صحّة ملك فرنسة وجميع احوال مملكتهِ فاجاب السفير عن كلّ ذلك بالتفصيل وعند النهاية من الكلام دعاهُ الى الجلوس على دكَّةٍ لطيفة من العاج عليها قطيفة مزركشة بالذهب. ثمَّ عزفت الموسيقى واتوا ببساط هندي ثمين بُسط امام السفراء وصُفَّت فوقهُ صحاف المائدة من الذهب الابريز لكل سفير صحيفة. وكانت الاطعمة والخمور من افخر ما يعهدهُ الملوك

وبعد الغداء استأذن السيّد بيكه وخرج من عند الشاه مع جميع السفراء والكل منذهلون ممَّا لقيهُ السفير الفرنساوي من حسن المعاملة فزاد بذلك اعتبارهُ لدى الجميع وتوفَّرت لديهِ الوسائل لتعزيز اعمال الرسالة فأصلح ما أمكن إصلاحهُ وكتب الى المجمع المقدَّس يقترح عليهِ اصلاحات اخرى تضمن توحيد قوى الكاثوليك ونجاح امورهم في المستقبل. ومن جملة ما طلبهُ انشاء مدرسة اكليريكيَّة في تلك الربوع

ومما توفّق في نيلهِ من تعطُّف الشاه ان يُبطل عادةً اتَّخذها من اسلافهِ وهي انهُ كان في كلّ سنةٍ في عيد الذبح يختار اربعة من فتيات النصارى فيضمّهنّ الى حرمهِ او يقدّمهنّ الى اصحابهِ مُعلناً بإسلامهنّ

قضى السيّد بيكه سنتين في اصفهان ناشرًا علَم التقوى والغيرة بين الجميع. وفي اثناء اقامتهِ هناك قدم الابوان المرسلان «روك وسانسون» اللذان كان طلبهما لمرافقتهِ وكانا حاملَين خبر تعيينهِ اسقفاً على بغداد لوفاة اسقفها لويس دوشمان المار ذكرهُ. وفي الوقت عينه وردت عليهِ براءة البابا اينوشنسيوس الحادي عشر تُشعرهُ باليوبيل القرني فاستنسخها وذيَّلها بتوصيات منهُ ووجّهها الى بغداد وتبريز والبصرة وشيراز والى بلاد الكرج واعلن هو بها في اصبهان منتحاً ذلك اليوبيل في جولفا باحتفال عظيم في كنيسة المرسلين اليسوعيين فاقبل جمهور المؤمنين الى ربح تلك النعمة الجزيلة وقاموا بكل شروطها وكان السيد بيكه تقدَّمهم بوفائها صائماً ثلثة أيام. وبهمّتهِ وارشاداتهِ في اصبهان ردَّ الى حجر الكنيسة بعضاً من الهراطقة الكلوينيين وانقذ من سجن البطريركِ الارمني العازر الاسقفَ ثارتان الكاثوليكي الذي كان وشى بهِ اعداؤهُ ودفعوا البطريرك الى حبسهِ وهو بريء الساحة



الاسقف فرنسوا پيكه († ١٦٨٥)

(عن صورة قديمة)

كان السيد بيكه ينتظر بفروغ الصبر وروود الهدايا الموعود بها من قبل ملك فرنسة حتى فرغ صبره ووجد عند الشاه بعض النفور من ذلك التأخر الى ان قدم اخيرًا من باريس الابوان اليسوعيان لونجو وبوتيه (Longeaux et Pothier) في ١٥ ت ١ حاملَين تلك الهدايا بعد ان صرفا سنة كاملة في سفرٍ قاسيا فيهِ اشق الاتعاب واعظم المخاطر . ثم نظم تلك الهدايا وارسلها مع كتاب الى الملك صحبة امين اسرارهِ الاب سَفَر واليسوعيَّين الوافدَين وكان الشاه وقتئذٍ خرج يتفقد الجيش فاستقبلهم بتمام الارتياح واحتفى كثيرًا باشخاصهم وضرب لهم خيمة بقرب خيمتهِ في وسط المعسكر واكرم ضيافتهم . وكانت الهدايا تتألف : ١) من ساعتين كبيرتين تعيّنان حركات الشمس والقمر صباحَ مساء مع حركات السيّارات وعلاقات بعضها الى بعض مع تدوين ازمنة الايام والشهور والسنين . ٢) من مرآة صقيلة مركّبة من معادن مختلفة . ٣) من أسطرلابين من البرونز المموَّه بالذهب مع الارقام اللاتينيَّة والعربيَّة . ٤) واخيرًا ثمانية مجلّدات رُسمت عليها رسماً جميلاً قصور فرنسة الملوكيَّة وآلة مرلي الشهيرة وتحف فرسالية مع كتاب من خط يد الملك جاء فيهِ بعد المقدّمات ما تعريبهُ :

« ان رعايتنا ومحبتنا لجميع النصارى الراتعين في ظلّ دولتك الرفيعة الشأن وخصوصاً الارمن الكاثوليك القاطنين مقاطعة نخشيفان حملتنا كما حملت سلفاءنا من قبل ، ان نبدي لجلالتك عاطفة شكرنا عمَّا يلاقي رعاياك النصارى من حسن المعاملة بناء على توصياتك الى من يتولّون امرهم . وبما ان حكّام المقاطعات يُبدّلون احياناً بمن لم يكونوا قد وقفوا على افكار جلالتك ومقاصدك في الشؤون التي تهمّنا فاننا نُسَرّ ان تصدر إرادتك بتجديد اوامرك وتوصياتك الاولى لاولئك الحكام ليظلّ الارمن الكاثوليك شاعرين برعايتك وعنايتك . ونحن آملون ان تبسط دولتك حمايتها على جميع كنائس النصارى وترعى وتكرم بالاخصّ اسقف سيزاروبوليس حامل كتابنا هذا اليك وهو سفيرنا في بغداد ليعمل ، ما استطاع ، على توثيق عرى المودة وحسن المواصلة بين المملكتين لتكون علاقاتنا دائمةً ابديَّةً كما نتمنّى . ولنا ملء الثقة ان تشمل جلالتك بعنايتها الرهبان الافرنسيين المقيمين في مملكتك ، وبنوع اخصّ اليسوعيين الذين نخصّهم بمزيَّة خاصة ثم الذين يكونون ممثلين لديك في غيبة مطران سيزاروبوليس ، ذات اعتبارنا وحبّنا لك . ولسنا نشك ان تكون عظمتك واثقة باخلاص عاطفتنا هذه التي نبديها في كل فرصة تسنح . وعليهِ نسأل الله ان يزيدك عظمة وتأييدًا ويوليك آخرة سعيدة »

تحرَّر في قصر القديس جرمانوس في ٢٠ آذار سنة ١٦٨١

لويس

وقد اجاب الشاه الى ملك فرنسة جواباً لطيفاً على يد الاسقف بيكه وسلّمهُ هدايا ثمينة من طنافس عجمية ومنسوجات وطنيّة غيرها . ودونك ما كتبهُ بعد السلام :

« ايها الامبراطور لويس يا من انت فخر الملوك بالجلال والعزّة والمجد والنبطة التي فيك . يا من لهُ المقام الاعلى كالمنازل الاثني عشر السماوية ولهُ حميّةُ الاسد في المعارك . يا من يشرق بهائهِ على العرش الملوكي القائم فيه جلاله فوق جميع الملوك والاباطرة المسيحيين اكراماً وسؤدداً . يا عاهل مملكة فرنسة الاعظم انّنا ننهي الى جلالتك اننا حظينا من يد مطران سيزاروبوليس بكتابك اللطيف الذي حمله الينا وهو يبرهن عن اخلاصك ومودتك لنا وتوثيقك عُرى الاتحاد الذي كان بين آباء جلالتك واسلافنا الاماجد . فان ذلك الكتاب قد جدَّد في قلبنا عاطفة الحنان والمحبة القديمة والجديدة . وبما انك اوصيتنا بالنصارى الارمن الذين في مقاطعة نخشيفان بعبارات تستدعي التفاتنا ، فنحن نقول انه قد يحدث احياناً ما لا نريد عند تبديل الحكام بغيرهم ممن لا يكونون واقفين على توصيات جلالتك وعلى اوامرنا فلا يراعون الارمن . اما من جهة طلبك لإصدار امر اوضح واجزم في شأن مطران سيزاروبوليس والمسيحيين الاوربيين الكاثوليك الرومانيين وبالاخص الآباء اللابسين الثوب الاسود (اليسوعيين) فنجيبك بان ذلك قد ادركه فهمنا الملوكي الثاقب . . . وبحسب رغبتك قد اصدرنا حكماً قاطعاً وخطاً شريفاً واجب الاطاعة في شأن من ذكرت . كما اننا اعلمناك قبلًا في كتابنا الولائي بهذا الشأن . وذلك الامر الجازم بكل ما فيهِ من قوّة يقوم بتنفيذهِ الحكام الجدد بكل دقة . واذا كان لجلالتك بعض المصالح في هذه البلاد فأخبرنا لنصدر اوامرنا فيقوم بها عمّالنا وخدمة سلطاننا الذي هو ظل الله على الارض . واننا نتمنى لك كل ما ترغب من الخير والتوفيق ! »

والكتاب مذيَّل بختم الشاه رُسمت عليهِ هذه الكتابة : « الشاه عبّاس خادم عليّ وليّ الله » وعلى دائرة الختم اسماء الاثني عشر اماماً . وقد أُودع الكتاب في علبة ثمينة مربعة الشكل مغشاة بقماش ثمين مربوطة بشريطتين ذهبيتين في طرف كل منها رمّانة جميلة . واذ سلم الشاه كتابه الى السفير بيكه قال لهُ : « احمل هذا الكتاب الى صديقنا ملك فرنسة وسلّم عليهِ من قبلنا » ثم اوصى بان يرافقهُ احد الملازمين حتى همدان وان يجهّزوا لهُ عشرين جملًا وثمانية رؤوس من الخيل لاجل خدمهِ وحمل امتعته

فشكر المطران للشاه تنازله وانعطافهُ وسألهُ الاجازة له بالسفر وللآباء اليسوعيين الاقامة في اريفان لاجل عمل الرسالة فاولاه كل ما طلب ورخّص للمرسلين بانشاء مراكز جديدة في جولفا وهمدان ووان . واهم تلك المراكز دير الآباء اليسوعيين

في اريڤان التي هي على مسافة من جبال اراراط واكثر سكانها من الارمن الغريغوريين ومنهم رهبان القديس باسيليوس القاطنين دير القديس غريغوريوس المنوِّر في اتشميازين مركز بطريركهم ولذلك كان قصد السيد بيكه من نزول الآباء اليسوعيين ما بينهم ان يردُّوا اولئك الرهبان اذ على ارتدادهم يتعلق ارتداد بقيَّة الارمن

ما كاد السيِّد بيكه ينتهي من هذه المهمَّة حتى عوَّل على السفر الى بغداد ليتولى فيها اشغال كرسيّهِ . واختار لمسيرهِ طريق همدان وهي في منتصف الطريق الى بغداد ناوياً ان يسكن فيها ريثما تأتيهِ اجازة الباب العالي للدخول فيها . فكان خروج الاسقف من عاصمة العجم في ٢٠ أيَّار مصحوباً بدموع الكاثوليك واسف كلّ من عرفهُ

﴿السيِّد بيكه في همدان﴾ تقطع الطريق بين اصفهان وهمدان بخمسة عشر يوماً إلَّا انَّ اللازم رفيقَ الاسقف بطمعهِ الاشعبيّ كان سبباً لتأخيرهِ في الطريق فلم يبلغ همدان الَّا في ١٥ حزيران فخرج لاستقبالهِ اسقف الارمن اسطفان وشعبهُ وفي مقدّمتهم نائب حاكم البلد اغبية سيّدهِ الحاكم في اصفهان وانزلوا السفير في دار اعدُّوها لهُ . واخذ الناس يتردَّدون اليهِ فرأى ان دارهُ قد تضيق عنهم فابتنى غرفاً بقربها باللبن وخص منها غرفةً واسعة جعلها معبداً لصلاتهِ . فكان اذا انتهى من فرائضهِ الدينيَّة يستقبل الوافدين وكان اكثرهم من الارمن الغريغوريين فجعل يرشدهم ويثبت لهم صحَّة الايمان الكاثوليكي فردّ منهم كثيرين . لكنَّ اسقفهم امتعض من ذلك واعلن الحرم على من يزور السيّد الاسقف ونشر في حقّهِ الاراجيف حتى لم يَعُد يجسر احد على زيارتهِ إلَّا خفيةً وفي ظلمة الليل . وكان الاسقف الارمنيّ وشى بهِ الى نائب الحاكم وشكاهُ بزعمهِ انهُ يخدع الناس ويجعلهم فرنجاً . فصبر السيد بيكه على هذه الوشاية مدّة ثمَّ كتب الى اصفهان يعلم حاكم همدان بسوء تصرُّف نائبهِ فأرسل للحال وعزلهُ واقام بدلًا منهُ نائباً آخر واوصاهُ بمجاملة السيد بيكه واكرامهِ . فخفَّت وطأة الاضطهاد وعاد الناس الى مقام الاسقف الصالح يرتشدون بامثالهِ واقوالهِ فعزَّى الله قلبهُ بارتداد كثيرين من الارمن الى ايمان القديس غريغوريوس ومنهم بعض وجوه الاكليروس

وفي اواخر شهر آب دعا السيد بيكه امين سرّهِ الكاهن سَنْر وطلب منهُ ان يسير الى باريس لينقل الى الملك لويس باسمهِ هدايا ملك العجم وسلَّمهُ رسالةً الى

جلالته مع رسائل اخرى الى كلّ اصحابه . فشقّ هذا الامر على سَفَر اذ لم يشأ ان يفارق سيّده لكنهُ رضي حبًّا به ان يقوم بهذه الخدمة وسافر بزيّ تاجر من تجار البلاد . فلمّا وصل الى حلب سالمًا ألحّ عليهِ ابناء وطنهِ وقنصل فرنسة مع سائر الاكليروس بان يقبل درجة الاسقفيّة على ماردين قبل مواصلة سَفَرهِ فقبلها في الاحد الاوّل من الصوم من السنة ١٦٨٥ ثمّ ابحر من الاسكندرونة الى فرنسة

﴿مرض السيد بيكه ووفاتهُ﴾ وكان السيد بيكه في تلك الاثناء قد شعر في شتاء السنة ١٦٨٥ بضعفٍ عظيمٍ في قواهُ حتى تأكّد قرب وفاتهِ قبل بلوغهِ بغداد فأخذ يستعدُّ لآخرتهِ فاهتمّ اوّلًا بامور الرسالة وكان اتاهُ مرسلان آخران درسا الارمنيّة فاقرّ المرسل «روك» في همدان وارسل الى قزوين رفيقهُ سَنسون ففتح هناك رسالة اتت بعد قليل باثمار طيبة . وكان كتب وصيّتهُ الاخيرة في ٩ ايلول سنة ١٦٨٤ وفي مضامينها شاهد حيّ على تجرّدهِ واتّضاعهِ العميق جاهر فيها بانّهُ يريد «ان يموت ابن الكنيسة الرسوليّة الرومانيّة خاضعاً لقداسة البابا ومُسلّماً بكل ما حدّدتهُ الكنيسة من قضايا الايمان دون تمييز ولا استثناء» . وصرّح بإرادتهِ ان يكون دفنهُ دون مأتم حافل وان يقبر في مقبرة الارمن اذ لم يكن للكاثوليك سواها . ثمّ عيّن حسنات لاقامة القدّاسات عن نفسهِ واوصى بكل ما يملك من ثابت ومنتقل لمن يقام من الاساقفة خلفاً بعدهُ وبخلافهم للمجمع المقدّس . وعهد بتنفيذ وصيّتهِ الى رفيقيهِ الابوين روك وسنسون . وكانت الوصيّة موقعة باسمهِ هكذا : «فرنسوا بيكه اسقف بابل ونائب رسولي على العجم»

وفي اوائل شهر آب ثقلت عليهِ وطأة المرض وهو مع ذلك لا يكفّ على قدر استطاعتهِ عن تقدمة الذبيحة او تناول القربان وعيّد مع المرسلين عيد انتقال العذراء بعد ان عمّد ابنَ تاجر سوريّ من طائفة الروم كان وُلد في همدان

وبقي أيّاماً خائر القوى يستعدّ لملاقاة ربّهِ بكل هدوء وراحة وتسليم الى ارادة الله رغمَ اوجاعهِ المؤلمة حتى كان ظهر اليوم ٢٦ من آب وكانت حاشيتهُ حولهُ فبارکهم البركة الاخيرة وبعد قليل لفظ روحهُ الطاهرة بتمام الهدوء والسكينة ولهُ من العمر ٥٩ سنة واربعة اشهر

وقد أقيمت لهُ جنازة حافلة كما يليق بمقامه حضرها ارباب الدولة والارمن حتى

الذين كانوا ناصبوهُ في حياتهِ فقُبر كما شاء في المقبرة الارمنيَّة. لكنَّ جماعة اعدائهِ عادوا بعد حين وانقلبوا على المرسلين وطلبوا ان تُنقل رفات السيد بيكه من مقبرتهم فنُقلت الى معبدهِ. واذ فتحوا وتتنذ تابوتهُ رأوا يمينهُ سالمةً كأنَّ الله اراد ان يبيّن للجميع رضاهُ من تلك اليمين المباركة آلة البرّ والحسنات. وكفى دليلًا عن عظم شأن الاسقف بيكه ما كتبهُ عنهُ الفارس دَرڤيو خلفهُ في قنصليَّة حلب ورفيق سفرهِ من مرسيليه قال: «كان بيكه رجلًا عجيباً في خدمة ربّهِ وخدمة مليكهِ» فكأنهُ يترجم لقول الشاعر العربي

ما أجمل الدين والدنيا اذا اجتمعا

ونسأل الله في الختام ان يقيّض للدولة الفرنسويَّة امثالًا من هؤلاء الابطال الذين بأعمالهم وعرق جبينهم قامت بنايةُ نفوذها في ديارنا الشرقيَّة بارك الله بكر الكنيسة الكاثوليكيَّة وجعلها ركناً لكل عمل خير فانَّهُ السميع المجيب

بيروت

تاريخها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

البحث التاسع

ديانة اهل بيروت (تتمة)

ومع هذه الادلَّة على انتشار الدين المسيحي في بيروت نجد للوثنيَّة آثارًا باقية الى

القرن السادس للمسيح . وقد سبق لحضرة الاب رينه موترد في المشرق (٢٢ [١٩٢٤]: ١٩٥—٢٠٠) وصف هيكل وثني كان مقاماً جنوبيّ السراية الجديدة على منعطف التلّ الراقي من باب يعقوب الى كنيسة الارمن الغريغوريين . وكان الهيكل المذكور على اسم «الزُّهَرة السيّدة» اي معبودة الفينيقيين عشترت . وبقربهِ وُجدت كتابات راقية الى اواخر القرن الثاني او اوائل الثالث . وقد نُشرت صورة ذلك الهيكل مكبَّرةً عن بعض نقود بيروت (ص ١٩٥)

وفي ترجمة ساويرس الانطاكي لزخريا الخطيب افادات عن بقايا بيروت الوثنيّة في عهدهِ اي في اواسط القرن الخامس وذكر هناك شيئاً من عاداتهم ومآتمهم واشتغالهم بالسحر ونفور الناس عنهم لخبثهم وسوء تصرُّفهم (١

وكذلك الكتابات المدفنيّة والتذكاريّة والآثار الفنيّة المكتشفة في بيروت وفي جوارها ولاسيما في جهات بيت مري وعند دير القلعة معظمُها لعبدة اوثان تتراوح بين القرن الثاني الى السادس للميلاد . ولعلّ المدينة لم تنبذ تماماً العبادة الوثنيّة قبل الزلازل التي كادت تطمس آثارها الى آخر الدهر

على انَّ الوثنيّة مع ثبات آثارها في بيروت لم تأتِ فيها على ما يظهر بمعاملات سيئة من مصادرة النصارى واضطهادهم ممّا نجدهُ في غيرها من المدن الساحليّة التي كثر فيها الشهداء وجاءت اخبارهم في صفحات التاريخ لاوسابيوس القيصري وغيره كجبيل وصور وقيسريّة

اما ما يُخبر عن استشهاد القديس جرجس فيها فهي رواية لا يمكن القطع بها ويدَّعي الكتبة وقوعها في عدَّة اماكن كنيقوميدية ولُدّ (قرب يافا) وغيرهما . فضلاً عمّا في قصَّة التنين من الغرابة

البحث العاشر

مدرسة الفقه الروماني في بيروت

وممّا ألفتَ الى بيروت أنظار العالم الروماني مدرستُها الفقهيَّة التي احرزت لها مجداً

١) اطلب هذا الكتاب وترجمتهُ بالافرنسيَّة F. Nau : Vie de Sévère, pp. 49-68

الّا يفوق على مجد رومية والقسطنطينيّة عينها . قيل ان اغسطوس قيصر بعد انتصاره على مرقس انطوان خصمهِ في اكسيوم اجتاز في بلاد الشام واعجبهُ موقع بيروت فأنعم عليها بفتح هذه المدرسة الفقهيّة . وليس لنا على ذلك برهان قاطع . والمرجّح ان هذه المدرسة أُنشئت في اواخر القرن الثاني للمسيح لمّا صارت الدولة الرومانية في عُهدة سلالةٍ تُعرف بالسوريّة وكان اول ملوكها سبتيموس ساويرس (١٩٣–٢١١م)

وما لا شبهة فيه انَّ مدرسة بيروت الفقهيّة كانت عامرةً في اوائل القرن الثالث كما روى الامرَ احد مشاهير المتخرّجين فيها القديس غريغوريوس العجائبي في أواسط القرن الثالث . وكذلك شهد على وجودها احد الجغرافيين اليونان في تاريخ سنة ٢٣٩ للمسيح فقال: «ان بيروت جامعة لتعاليم كل الشرائع الرومانية (١»

وقد انشأ الرومان مدارس غيرها في رومية والاسكندريّة وفي قيصرية فلسطين وفي اثينة ثم (في القرن الرابع) في حاضرة القسطنطينيّة وانما بيروت امتازت بمدة قصيرة بل برزت وفاقت على تلك المدارس حتى مدرستي رومية والقسطنطينيّة

ولعلَّ بعض فقهاء السوريين الذين امتازوا في المئة الثانية والمئة الثالثة للمسيح هم الذين استوقفوا انظارَ معاصريهم على بيروت وما ازدانت بهِ من المفاخر . منهم بابنيان (Papinien) الفقيه الشهير الفينيقي الاصل وأُولبيان (Ulpien) الصوري وبوليوس بولس (J. Paulus) الحمصيّ . فهؤلاء قد بلغوا ذروة المجد بعظم فضلهم وسعة مداركهم تشهد لهم بقايا عديدة من مآثرهم صبرت على آفات الدهر . وكان ديوقلسيانوس الملك اعفى دارسي الفقه في بيروت من الضرائب العموميّة تنشيطاً لهم فراجت فيها سوق الآداب ايَّ رواج

وممّن اطنبوا في وصف مدرسة بيروت الفقهية وأثنوا عليها جميلاً كاتبٌ لاتيني وضع في اواسط القرن الرابع تأليفاً وصف فيهِ خواصّ البلدان عنوانهُ صورة العالم كلّه (Expositio totius mundi) فلما اراد تعريف بيروت(قال : «انها المدينة الوافية الكمال مَوقعاً وحضارةً» .ومن جهة الاداب العلميّة ذكر انَّ فيها مدارس لدرس الحقوق حسب الدستور الروماني واليها يتوارد الطلبة افواجاً من كل صقع ومنها

١) اطلب Geogr. Minores. II, 517, : « Berytus... auditoria legum habens, per quam omnia Romanorum judicia stare videntur.»

يخرج المحامون القانونيّون لحاكم العالم كله » . وقد دعاها الملك يوستنيان في دستوره القانوني : « امّ العلوم وظلّ الشرائع » . وقال يوحنا اناطوليوس : « انّها كرسي الآداب والنعم » . ولقّبها القديس غريغوريوس العجائبي « بالمدرسة الرومانية المحضة ومركز شرائع رومية الثابت » . وقال الشاعر نونّس : « انها موطن الحقوق ومدينة الفقهاء ومُرضعة الحياة باللّين والتؤدة »

وقد ابقى لنا التاريخ اسماء بعض معلّميها وهم كيرلّس وديوستان ودُمنينوس واودكسيوس ولاونطيوس . ثم اشتهر منهم اناطوليوس ودوروتاوس . وألّف كيرلّس كتاباً مدرسيّاً يُعرف بالتحديدات الفقهية وهو من التآليف المُمتعة

ولما جلس الملك يوستنيان على منصّة الملك في القسطنطينيّة اراد تهذيب الشرائع الرومانيّة وتنظيمها وحَصْر ابوابها فانتدب نخبة فقهاء ذلك ... الجليل واستدعى من جملتهم ثلثة اساتذة من مدرسة بيروت فساعدوه في عمله مساعدةً هامّة وهم اودكسيوس واناطوليوس ودوروتاوس فأنجزوا في سنين قليلة تلك المهمّة المعتبرة كطُرفة ذلك العهد وأبرزوا الدستور اليوستنياني في كل اقسامه وفروعه فأخرجوهُ في كتب معلومة عوّلوا عليها في درس الفقه مذ ذاك الحين . واحدُ اقسام ذلك الدستور المعروف بالمنظّم (Digesta) قام بهِ اودكسيوس البيروتي وحدهُ . فعُدّ عمل يوستنيان احدى نِعَم دولتهِ واضحى كاساس الدروس الفقهية في كل الدول التي جاءت بعدهُ وكركن الشرائع المستجدّة . وفضلُ بيروت ظاهر في هذا المشروع العظيم .

ثم رأى يوستنيان ان يصلح المكاتب الفقهية فألغى منها مدارس قيصريّة واثينة والاسكندرية ولم يُبقِ منها الّا ثلثاً وهي رومية والقسطنطينيّة وبيروت . وكان الملك يختار لها معلّميها ويُجري عليهم الجرايات . وكان لبيروت خمسة اساتذة على عدد السنين الخمس اللازمة لإحراز الدروس الفقهيّة . لكلّ سنةٍ استاذ . فيخرج التلامذة بعد ان ينالوا الشهادة من اساتذتهم مستعدّين لكلّ الامور الشرعيّة متقنين لحقائقها ودقائقها اتمّ الاتقان

وان سأل السائل كيف كانت معيشة الطلبة المتقاطرين الى بيروت من انحاء الدولة أجبنا انّهم كانوا أحرارًا يتّفقون في الغالب مع الاهلين فيسكنون في بيوتهم

ويبيتون عندهم ليلاً ثم يترددون الى المدارس في ساعات التعليم. ولا يخفى ان تزاحم الشبان المطلقي الحرية في حركاتهم وسكناتهم كثيراً ما يقودهم الى ردغات المأثم حتى ولو كانوا من اهل الصلاح فما ظنك بهم ان كانوا مائلين الى الاهواء الباطلة يسعون في إغواء رفقتهم الى حمأة الفساد ولاسيما في عهد الوثنية؟ فانّ الكتبة المعاصرين كاوسابيوس القيصري وغريغوريوس العجائبي يدعون بيروت «مصيدة النفوس البارة» لكثرة ما فيها من دواعي الفجور فان هواءها الطيّب وحدائقها وحماماتها ومقاصفها وملاعبها كانت مَدْعاةً الى اللهو وارتكاب المحرّمات. وقد شبّهها غريغوريوس العجائبي بساحرةٍ تفتن عقول الاحداث وتهوي بهم الى قعر الفساد

ومما كان يزيد مدينة بيروت عثرةً لذوي الصلاح ما أُقيم فيها من هياكل الاصنام التي تعظّم الشهوات البشرية وتؤلّه المنكرات. فكان الوثنيون يجاهرون بعبادة عشتروت إلهة الزنى وباخوس إله الخمر والقصف وكان يخدمُ هياكلهما سَدَنَةٌ يتاجرون بالعهارة حتى ان الشاعر اليوناني نونّس نعتَ بيروت في اواخر القرن الرابع ببلاط عشتروت ومقام اللذّات البهيميَّة وهيكل المرَح والبطَر

ثم افاض في وصف حدائق بيروت وغاباتها الصنوبريّة وما يُشرف عليها من الرُبى الزاهية والمشارف المزدانة بالآثار والابنية الفخيمة، منها هيكل جوبيتر البعلبكي في بيت مري الذي كان يتوارد اليهِ الزوّار من انحاء فينيقية. وكانت كل هذه الاماكن مجلبةً للتنعّم ورفاهية العيش والخلاعة تجذب اليها قلوب الشبيبة جذب المغناطيس للحديد.

ولما تغلّبت النصرانيّة على المدينة بعد قسطنطين الكبير وثاودوسيوس لم تزل العثرات العديدة في سبيل الشبّان ولم ينجُ منها الّا القليلون كأمفيان الشهيد الذي كان قدوة أترابهِ ومثالهم الحيّ. ولنا على معيشة الدارسين في بيروت شاهدٌ عياني كان في القرن الخامس وهو زكريّا الاستاذ الذي كتب بالسريانيّة سيرة ساويرس الانطاكي ووصف سلوكهُ في بيروت اذ كان يدرس فيها الحقوق (سنة ٤٨٧–٤٨٨) وقابل بين رزانته وتزق رفقتهِ الشبان كما رُوي ذلك في مجلة المشرق في سنتها السادسة عشرة (ص ٩٣٠–٩٣١). وهناك لمحة عن تنظيم المدارس ودرجاتها وترتيب صفوفها ومعلّميها وخُصّ منهم بالذكر لاونطيوس بن افدوكسيوس وغير ذلك من التفاصيل

التي تمثل لنا بكل دقة حياة المستفقهين في اواخر القرن الخامس للمسيح

ومما افادنا كتبة ذلك العهد ان مدارس بيروت ما كانت مقتصرة على علم الفقه بل كان الاحداث يعكفون ايضاً فيها على العلوم الادبية بفروعها كاللغة والادب والفلسفة. ألا انّ شهرتها في الفقه كان يُضرَب بها المثل في العالم الروماني باجمعهِ. وبقيت مدارس بيروت زاهيةً عامرةً الى اواسط القرن السادس حيث نُكبت بالزلازل وكوارث الدهر كما سترى

(لها بقيَّة)

الاداب العربيَّة
في الربع الاول من القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

﴿ابرهيم بك المُوَيلحي﴾ في هذه الحقبة الاولى من القرن العشرين وقعت ايضاً وفاة احد اعيان المصريين الذين احرزوا لهم ذكرًا في عالم الادب نعني بهِ ابرهيم المويلحي المولود في مصر سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٦ م) والمتوفى سنة ١٣٢٢هـ (٢٩ ك٢ ١٩٠٦ م) تقلّب في عدَّة اعمال وغلب عليهِ الادب والسياسة فخدم وطنهُ مصر في ايّام الخديو اسماعيل باشا ورافقهُ بعد استقالتهِ الى اوربَّة فكان امين اسرارهِ وسكن مدَّةً باريس ونابولي معهُ ثمَّ تردَّد مرارًا الى الاستانة فحظي بالنعم السلطانيَّة والرتب عند عبد الحميد. وانشأ عدَّة جرائد مثل الخلافة في نابولي والرجاء في باريس ونزهة الافكار ومصباح الشرق في القاهرة ولهُ عدَّة مقالات في الصحف العربيَّة غيرها. وكان لم يستقرّ على خطّة مع كونهِ شديد الذكاء بليغ الانشاء كثير التفنُّن مرَّ الانتقاد وهو منشئ جمعيَّة المعارف لنشر الكتب المفيدة. ومن آثارهِ كتابهُ الشهير «ما هنالك» وصف فيهِ اسرار يلدز وسياسة السلطان عبد الحميد ولهُ شعر قليل وانشاؤهُ اقرب

الى الانشاء العصري لا تصنّعُ فيه لمن سبقهُ . وانما يزينهُ بالنكت البديعة والمعاني المستطرفة . ومما وقفنا لهُ من قلمهِ ما كتب في «الانشاء والعصر» وهو كلام طويل ينتقد فيه خمول المصريين بصناعة الانشاء مع تزايد المطابع وانتشار التعليم وكثرة المدارس ويبحث عن اسباب انحطاطها فقال في ذلك :

« انما السبب عند جمهور الباحثين هو سوء طريقة التعليم والتلقين للعلوم العربيّة بين طلبة المدارس وضعف العناية في اختيار الكتب النافعة للتدريس . وليس هذا في نظرنا السبب الوحيد لما نشاهدهُ من التأخر والانحطاط في صناعة الانشاء والتحرير وقلّة العاملين فيها فذلك مها جئتَ بهِ من التحسين والتعديل لطريقة التعليم لا ينفع في ملكة الانشاء في أذهان التلاميذ التي عليها المعوَّل في حسن الصناعة لانَّ المدَّة لدرس اللغة العربيَّة في المدارس لا تكفي لغير الحصول على اصول اللغة وقواعدها ولا تفيد لتكوين الملكة لشيءٍ صالح . ولا يخفى عن علمك انَّ الطالب يتجرَّع هذه القواعد والاصول في الدرس ولا يكاد يسيغها ولا يتناولها الّا كما يتناول المحموم مرَّ الدواء ولا تمكث في صدره الّا ريثما يمجّها عند اخذ الشهادة . . .

«على مثل هذا يخرج المتخرّجون في المدارس سواءٌ الفائز منهم بالشهادة والخائب فيها ثمَّ ينصرف كل واحد منهم الى الاشغال التي تلهيه عن كلّ صحيفة وكتاب ولا يجد امامهُ مجالًا لنموّ ملكة الكتابة . . . اما اذا ابتلاهُ الله بالدخول في خدمة الحكومة فقُلْ يا ضيعة العلم والادب ويا بؤس صناعة الانشاء والتحرير ويا زوال ملكة الافصاح والتعبير ! اذ يتلقّى هناك لسانًا جديدًا ولغةً حديثة لا يُهتدى فيها الى قاعدة ولا ترتبط برابطة ولا تفضل لغة البرابرة . . . ولو انهُ ذهل يومًا وجاء في بعض عمله بجملة صحيحة وعبارة مستقيمة في اللغة وانحرف عن ذلك اللسان المصطلح عليهِ شيئًا قليلًا لأصبح عرضةً للتهكّم عليهِ والاستهزاء بهِ بين العمّال فيعمد الى التوبة من الذنب . . . ويأخذ بلسانهم فيأمن من مكرهم . . .

«ومن سوء الحظ لم تلتفت الجرائد السيَّارة الى اتقان صناعة التحرير ولم تعمل لهذا المقصد النبيل ولم يرَ اربابها ان يُتعبوا انفسهم ويكدُّوا خواطرهم للتفنُّن في بلاغة القول وفصاحة التعبير وانتقاء الالفاظ وتنويع التركيب وتجديد الاسلوب وما شابه ذلك من محاسن هذه الصناعة التي تروق للنفس وتطرب اليها القلوب . . . فينبغ فيهم النوابغ من الفصحاء والبلغاء ويكثر بيننا عديد الكتَّاب والادباء . . . وفاتهم انَّ الواجب على الكتَّاب المجيدين الذين يضعون أنفسهم امام القارئ في موضع الهادي والمرشد ومقام المربّي والمعلّم ان يرتفعوا بذهن القارئ الى درجة اذهانهم لا أنهم يتنزلون بافكارهم الى درجة افكاره . . .»

ومن فصولهِ الحسنة ذكرهُ في كتابهِ «ما هنالك» (ص ١٣٠–١٣٢) لموكب السلطان عبد الحميد في الاستانة يوم الجمعة (السلاملك) تلك حفلةٌ حضرناها مرّةً فأحسن المويلحي بوصفها قال :

« واذا صدرت الارادة السنيَّة بتعيين مسجد صلاته اجتمعت العساكر في ساحة المسجد امام باب السراي واصطفَّت صفوفاً مضاعفةً بعضُها وراء بعض. وفي هذه الاثناء تتسابق مركبات المُشيرين والوزراء والمشائخ والاجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء ومن كان معهم من علية قومهم الوافدين على الاستانة في قاعة الجيب الهمايوني المطلَّة على تلك الساحة التي لا يسمع السامع فيها قيلًا ولا صهيلًا الَّا صليل الاسياف وترديد الانفاس هيبةً واجلالًا وانتظارًا واستقبالًا لإشراق نور الحضرة السلطانيَّة. فاذا حان وقت الصلاة اشرقت المركبة السلطانيَّة المذهَّبة كالشمس ضياء من مطلع السراي تحمل الإمام نائب الرسول صلعم ويجلس امامهُ الغازي عثمان باشا. والمشيرون وكبار رجال المابين حافُّون من حول المركبة مشاةً خُشَّع الابصار ترهقهم ذلَّةٌ من جلال تلك العظمة الإماميَّة وهم في غير هذه الساعة اكاسرةُ الزمان وقياصرة الرومان كبرًا وجبروتًا وكلهم في امواج الملابس الذهبيَّة يَسْبَحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار وتأخذ الالباب حتى انَّ الناظر ليكاد بوالي الحمد لله تباعًا على ما منحهُ للدولة من عديد الرجال الصادقين في خدمة الملَّة بشهادة الكلمات الناطقة فوق النياشين . . فاذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون في القلب كانت كبائع يغشُّ الناس ب

عنوان ماء الورد . . . ثمَّ تسير المركبة بالعزّ والاجلال والسعادة والاقبال

وتحفظها المواكب . . ثمَّ يصعد السلطان الى المكان المخصَّص لصلاته فيصلي فيه وحده وصفوف العساكر العثمانيَّة واقفون في تلك الساحة ينتظرون تشريف جلالته للسراي بعد تأدية الصلاة . . »

ومن أُدباء المسلمين ايضًا المتوفَّين في اوائل القرن العشرين بعض الذين تركوا آثارًا قليلة من اقلامهم ﴿ كوفاء افندي محمَّد ﴾ المتوفَّى سنة ١٣١٩ (وقيل ١٣٢٢) (١٩٠١—١٩٠٤) كان امين المكتبة الخديويَّة دونك مثالًا من رسائله يهنئ بعض السادة بالعيد :

« كيف أُهنئك وَحدي وانَّك العالَمُ في واحد . لقد انطلقت الالسن بتهنئتك حيث اجتمعت القلوب على محبَّتك . وقد وافانا يومُ العيد الاكبر فالناسُ بين مهلّل ومكبّر . وهذا الربيعُ قد احتفلَ بِحُسنِ طالعك السعيد فنشر على الرُّبى مطارفهُ السندسيَّة ورفع أعلامَهُ الزَّبرجديَّة . وبعث برسول النسيم ، الى الروض فتلقَّاهُ بوجهٍ وَسيم ، وثغرٍ بسيم ، ونثر من الزهر النضير ، دراهم ودنانير ، ورقصت الغصون فغنَّت الطيور فوق الافنان ، بفنون الالحان ، فهكذا تكون اشارات التهاني ، وان لم تفِ بوصفها الالفاظ والمعاني ، والية بين أولاك ، رفعةً تصافحُ السماء ، وولَّاك ، رتبةً لا تُدانيها الجوزاء ، انَّ صحيح الفهم في دارك عُلاك لَعليل ، وإنَّ اللَّسِنَ وان شحذَ اللسان في وصف مجدك لَكليل والسلام »

ومنهم ﴿ مصطفى بك نجيب ﴾ المتوفَّى سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢) وكان رئيس قلم

بنظارة الداخليَّة وهو احد الادباء الفضلاء الذين اشتهروا بفصاحة القلم ونشر المواعظ وجليل الحكم فمن قوله نبذة وصف فيها الفونغراف قال :

« الفونغراف مثال القوَّة الناطقة ، من غير ارادة سابقة ، يختطف الالفاظ اقتطافاً ، ويختطف الصوتَ اختطافاً ، . أشدّ من الصَّدى في فعلهِ ، في اعادة الصوت على أصلهِ ، كأنهُ الوتر عن يد الضارب ، والقَصَب عن فم القاصب ، يحفظُ الكلام ولا يبيدهُ ، ومتى استعدتَهُ منهُ يعيدهُ ، كأنَّما حفظُ الوديعة ، في نفسهِ طبيعة ، فلو تقدَّمَ لهُ الوجود في مرتبة الزمن لأسمَعنا كلام السيد المسيح في المهد ، وصوت ألعازرَ من اللَّحد ، وكانت استودعتهُ الفلاسفةُ حكمتهم ، وأنشدوهُ كلمتهم ، فرأينا بهِ غرائب اليونان ، وبدائع الرومان . . . نديمٌ ليس فيهِ هفوةُ النديم ، وسميرٌ لا يُنسب اليهِ تقصير ، تُسكتهُ وتستعيدهُ ، وتَذُمُّهُ وتستجيدهُ ، وتَنقُصهُ وتستزيدهُ ، وهو في كلّ هذهِ الاحوال ، راضٍ بما يقال ، لا يكلُّ من تحديث ، ولا يَملُّ من حديث ، نمَّام كما ينمُّ لك ينمُّ عليك ، وينقل لغيرك كما ينقل اليك ، فهو المتكلم بكل لغة المحدّث عن كل انسان ، المؤرخ لكل زمان ، الشاعر الناثر المغنّي العازف ، لا تعجزهُ العبارة ولا يُجْهِدهُ الأداء ، ولا يفرقهُ اختلاف شكل ، ولا تبايُنُ اصل ، بل تعدَّت شدَّةُ حفظهِ البشريَّةَ من اللغات ، الى حفظ اصوات المجماوات ، الى حركة اصطكاك الجمادات

﴿ عائشة التيموريَّة ﴾ هي احدى النساء المسلمات التي تفرَّدت في الآداب في اواخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين فتوفيت في صفر من السنة ١٣٢٠ (أيار ١٩٠٢) وكان مولدها في القاهرة سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م) ووالدها اسمعيل باشا تيمور وأمها جركسيَّة . أحبَّت منذ صغرها العلم والادب وبعد ان اقترنت بالزواج ثمَّ ترمَّلت انصرفت الى الآداب وبرعت بنظم الشعر في اللغات الثلث العربيَّة والتركيَّة والفارسيَّة . وقد طُبع ديوانها العربيّ المسمَّى حلية الطراز فأثنى عليهِ الادباء طيّب الثناء . وشفعتهُ بكتاب نتائج الاحوال فاقبل عليهِ العلماء ايضاً واطرأوا صاحبتهُ . وممَّن قرَّظ كتاب حلية الطراز وردة كريمة الشيخ ناصيف اليازجي فقالت :

حبَّذا حليةُ الطراز أتَتْ من مصرَ تزهو باللؤلؤ المنظومِ
حليةٌ للعقول لا حليةُ الوشي وكنزُ المنطوق والمفهومِ
انشأتهُ كريمةٌ من ذوات م المجد والفخر فرعُ اصلٍ كريمِ
قد اعاد الزمانُ عائشةً فيها فعاشت آثارُ علمٍ قديمِ
هي فخرُ النساء بل وردةٌ في جيد ذا العصر زُيّنت بالعلومِ
فأدام المولى لها كلَّ عزٍّ ما بدا الصبحُ بعد ليلٍ بهيمِ

وقالت في تقريظ نتائج الاحوال :

هذا الكتابُ الذي هام الفؤادُ بهِ ... يا ليتني قلمٌ في كفّ كاتبهِ

ودونك امثلةً من شعر عائشة تيمور قالت في الفخر :

بيد العفاف أصونُ عزَّ حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرةٍ وقّادةٍ وقريحةٍ ... نقّادةٍ قد كمّلت آدابي
فجعلتُ مرآتي جبينَ دفاتري ... وجعلتُ من نقشِ المدادِ خطابي
ما عاقني خجلي عن العَليا ولا ... سَدْلُ الخمارِ بلمّتي ونقابي
عن طيّ مضمار الرهان اذا اشتكت ... صعبَ السباق مطامحُ الركّابِ
بل صولتي في راحتي وتفرُّسي ... في حسن ما أسعى لخير مآبِ

وممّا قالتهُ ترثي ابنتها وكان موتُها في رمضان :

طافت بشهر الصوم كاساتُ الردى ... سَحَرًا واكوابُ الدموع تدورُ
ومضى الذي اهوى وجرّعني الأسى ... وغدت بقلبي جَذْوةٌ وسعيرُ
ناهيك ما فعلت بماء حشاشتي ... نارٌ لها بين الضلوع زفيرُ
اني ألِفتُ الحزنَ حتى انني ... لو غاب عني ساءني التأخيرُ
قد كنتُ لا ارضى التباعدَ برهةً ... كيف التصبّر والبعادُ دهورُ
ابكيكِ حتى نلتقي في جنّةٍ ... برياضِ خُلدٍ زيّنتها الحُورُ
هذا النعيمُ بهِ الأحبّةُ تلتقي ... لا عيشَ إلّا عيشُهُ المبرورُ
والله لا املّ التلاوةَ والدعا ... ما غرّدت فوقَ الغصون طيورُ

ولعائشة تيمور قصائد مختلفة في الاوصاف والاخلاق والغزل والمديح وانّما اخذت في كلّ ذلك أخذ كتبة زمانها فلم تُعالج المواضيع المبتكرة. وكذلك نثرُها في نتائج الاحوال لا يخلو من التصنع في نظم سجعاتهِ. هذا فضلًا عما يحتويهِ من التخيُّلات والاقاصيص المصنوعة التي قصدت بها ترويح الافكار وتلهية الاحداث

وفي هذه الحقبة ذاتها فقدت مصر قوماً من مشاهير اطبّائها الذين كانوا أغنوا الطبَّ الوطني بمؤلفاتهم بعد ان تخرَّجوا على اطبّاء نطاسيّين من الاوربيين. منهم محمد

باشا الدري» و «احمد بك حمدي الجرّاح» وقد اتقن كلاهما علم الطبّ في باريس. وقد ألّف الاول «تذكار الطبيب» وألّف مطوّلًا في الجراحة وكتب تاريخ الاسرة الخديويّة. كانت وفاته في مطلع القرن العشرين. وصنّف الثاني في اعمال الجراحة ونشر جريدة طبيّة دعاها المنتخب. كانت وفاته سنة ١٣٢١هـ (١٩٠٣م). ومنهم الدكتور «محمّد بك بدر» تخرّج في فنّ الطبّ في انكلترّة وهو مؤلّف كتاب «علم الشفاء والمادّة الطبيّة» وكتاب شرح الادوية الجديدة وكتاب الصحّة التامّة. توفي سنة ١٩٠٢. وكان محمّد بك بدر اشتغل في المانية بالفلسفة الاسلاميّة ودرس هناك اللغات الساميّة وباشر بتاريخ فلاسفة الاسلام ومؤلفاتهم منذ ظهور الاسلام الى اليوم ولا نعلم أنشر بالطبع. وهو الذي نشر كتاب ابي منصور عبد القادر البغدادي «الفرق بين الفرق»

وممّن درسوا الطبّ في المانية «حسن باشا محمود» له مصنّفات عديدة في الامراض المصريّة كحمّى الدنج والهيضة وخصّ بدرسه ادواء وطنه كالدمّل المصري والطاعون الساري. ومن تآليفه الحسنة كتابه الخلاصة الطبيّة في الامراض الباطنيّة. وتفقّه ايضاً في اوربّا غير هؤلاء مثل «عبد الرحمن بك الهراوي» صاحب تأليف في الفيسيولوجية توفي سنة ١٩٠٦. و«الدكتور سليمان نجاتي» الذي تخصّص بمعالجة الامراض العقليّة وألّف كتاب «اسلوب الطبيب في فنّ المجاذيب». كان وفاته سنة ١٩٠٧

واشتهر في العلوم الفلكيّة «اسماعيل باشا الفلكي» الذي درس الرصد في مرصد باريس وادار في مصر المرصد الفلكيّ وكان ينشر تقاويمَ ارصاده الفلكيّة الرسميّة في اللغتين العربيّة والافرنسيّة. ومن تآليفه: «الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة» توفي سنة ١٩٠١

فترى انّ العلوم العصريّة كانت مدينة خصوصاً لاوربّة حيث تخرّج فيها المصريون ثمّ نشروها في وطنهم إمّا بالتدريس في القصر العينيّ. وإمّا بالمزاولة والتأليف فكانت سبب نهضة علميّة معتبرة تتمتّع اليوم مصر بثمرتها

أدباء الاسلام في الشام والعراق

وبينما كان المصريّون يحاولون كسر اغلال التقليد القديم الذي كان يضايقهم في

الكتابة ويحول بينهم وبين الرقي المصري. كان اخوانهم في الشام يجاهدون للحصول على حرية كافية لينزعوا عنهم ضغط نير الاتراك فيطلقوا العنان لاقلامهم للبحث في المسائل الاجتماعيَّة والاصلاح السياسيّ . وفي مقدّمتهم :

﴿عبد الرحمان الكواكبي﴾ وُلد في حلب سنة ١٢٦٥هـ(١٨٤٩م) من اسرة آل الكواكبي القديمة التي اليها تُنسب في الشهباء المدرسة الكواكبيَّة . وفيها تلقَّى العلوم اللسانيَّة والشرعيَّة وبعض العلوم الحديثة ثم أَنِس بالكتابة فحرَّر عدَّة جرائد كالفرات والشهباء والاعتدال وخدم الدولة متقلّباً في عدَّة مناصب علميَّة وادارَّية وحقوقيَّة الَّا انَّ ما طُبع عليهِ من الإباء والنخوة ودقَّة النظر وحبّ الانتقاد في العصر الحميدي حمل اعداءَهُ الى الوشاية بهِ الى المراجع العليا فزُجَّ بالسجن وجُرّد من املاكهِ . ثمَّ خرج سائحاً الى البلاد وطاف جانباً من افريقية توغَّل في صحاريها وبلغ اليمن ثمَّ رحل الى الهند وسكن آخرًا في مصر وفيها توفي سنة ١٩٠٣ . ومن آثارهِ ما يثبت لهُ سعة اطّلاعهِ على تاريخ الشرق ولاسيما تاريخ الممالك العثمانيَّة فعرف ادواءها وحاول علاجها كالافغاني . ومما أَلّفهُ في ذلك كتابهُ «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وكتاب «امّ القرى» نظر فيهِ الشيخ محمد عبده . وكان الكواكبي مع انفتهِ من الاستبداد رقيق الجانب عطوفاً على الضعفاء والمساكين

﴿محمد رشيد الدنا﴾ وقد اسفت بيروت في اوائل القرن العشرين على فقدها لهذا الكاتب الضليع في السنة ١٩٠٢ (١٣٢٠هـ) وهو احد تلامذة المعلّم بطرس البستاني في مدرستهِ الوطنيَّة . خدم الحكومة التركيَّة عدَّة سنين ثمَّ استقال من مناصبها ليخدم وطنهُ بالتحرير فانشأ جريدة بيروت سنة ١٨٨٦ وادارها الى سنة وفاتهِ وكان معتدل الطريقة في سياستهِ فأمِن نكبات الدهر . وكان يرتشد بآراء شقيقهِ الاكبر السديدة السيّد عبد القادر وصارت الجريدة بيروت من بعدهِ في عهدة اخيهِ محمد امين

نضيف الى أُدباء المسلمين في الشام ﴿السيد ابراهيم الطباطبائي﴾ من مشاهير ادباء العراق قضى نحبهُ سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م) في النجف وفيها كان مولدهُ سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) كان إمام النهضة اللغويَّة في وطنهِ بين صدور الشيعة . ولهُ ديوان شعر طُبع في صيداء تلوح فيه الاساليب البدويَّة القديمة وكان مُغرًى بغريب اللغة

وترى ذلك في معظم اشعارهِ. وقسمٌ كبير من قصائدهِ في الغزليات. ومن حسن قولهِ ابياتٌ ذكر فيها الاحباب وأيام الانس :

أُخَيَّ هل راجعٌ ليلٌ فينظمنا بشطِّ دجلةَ نظمُ العقدِ اخوانا
أحبابَنا ان تحُنْ فيكم وسائلُنا فحسبُنا كلُّ شيءٍ بعدكم هانـا
ان فرّق الدهرُ ما بيني وبينكمُ فقد صَحِبتُكمُ دهرًا وأزمانا
تركتُ في النَّجَف الاعلى لصحبتكم صَحْبًا وأهلًا واوطانًا وجيرانا
عوّضتموني عن اهلي وعن وطني بالأهل أهلًا وبالأوطان اوطانا

ومن حكمهِ :

ما كلُّ من صَحِبَ الاخوانَ جرَّبهم لا يُعرَفُ الخِلُّ إلَّا بالتجـاريبِ

وقال في محاسن الشعر :

للشعر حُسنانِ لا تعدوهما جهةٌ حسنٌ بمعنًى وحسنٌ بالاساليبِ

(لها بقية)

السريان في القطر المصري

لحضرة القس اسحق ارملة السرياني الكاثوليكي

٦ اتحاد بطاركة السريان وبطاركة الاقباط ومراسلاتهم

ظلّت البطريركية الاسكندريّة وشقيقتها البطريركيّة الانطاكيّة في اوّل امرهما محافظتَين على عهودهما للبطريركيّة الرومانيّة مقرّتين بفضل منشئها مار بطرس الهامة مطيعتَين لخلفائه في الكرسي الروماني حتى ظهور البدعة المنوفستيّة في اواسط القرن الخامس وقد صرّح الاحبار الرومانيون برفعة شأن هذين الكرسيين المجيدين فكتب

اينوكنت الاول سنة ٤٠٩ الى اسكندر اسقف انطاكية « ان كرسيك الانطاكي لم ينل هذا الامتياز الفاخر الّا لانّ هامة الرسل تبوّأهُ اوّلاً (١ » وكتب البابا جلاسيوس سنة ٤٩٤ : « ان الكرسي الثاني هو كرسي الاسكندريّة لان مرقس تلميذ بطرس قدّسهُ باسم سيّده الهامة . . . أمّا الكرسي الثالث فهو الانطاكي لان بطرس الرسول جلس عليهِ قبل شخوصه الى رومية (٢ » . وكتب القديس غريغوريوس الكبير بابا رومية الى ألوجيوس اسقف الاسكندرية : « ان بين اسقف رومية واسقفي الاسكندريّة وانطاكية اتحاداً وثيقاً لان بطرس الرسول اعتنى بانشائها فزيّنها وأعارها شيئاً من سموّ رتبتهِ فصارت هذه الكنائس الثلاث كالحبل المثلث الغير المنقطع وغدا لها التقدّم على جميع الكنائس (٣ »

وحبّذا لو بقيت هذه الكراسي الثلاثة ثابتة على الحبّ والوداد باجمعها (٤ غير ان عدوّ الخير والدين أبى إلّا ان يفصل الكرسيّ الاسكندري . . . . الكرسي الروماني فأصبح الكرسيّان متّحدَين قلباً وقالباً وصار بطاركتها يراسلون بعضهم بعضاً ولاسيما حين ارتقائهم الى الكرسي البطريركي تأييداً لاتفاقهم . وبناء عليهِ اخذ بطاركة السريان الانطاكيّون منذ انفصالهم عن الكرسي الروماني يكتبون صورة ايمانهم ويرسلونها الى البطريرك الاسكندري ليزيّدها . وقد اورد الشماس منّى في تاريخه ما يصرّح بذلك فذكر (ص ٣٤٤) ان البطريرك يوحنا الثاني († ٥١٧) لّما تولّى بطريركيّة الاسكندريّة تُبودلت الرسائل بينه وبين سويرا الذي اشتهر بالتعصُّب للطبيعة الواحدة . وكتب ديوسقورس الثاني († ٥٢٠) رسالة ايضاً الى سويرا فاجابه انهُ مشترك معه في الامانة (ص ٣٤٦) واقتصّ اثره تيموثاوس الثالث († ٥٣٦)

وكان فريق من بطاركة السريان يسير الى مصر لذلك السبب عينه . كذا صنع اثناسيوس الاول بطريرك السريان (٥٩٥ — ٦٣١) المعروف بالجمّال فانهُ لما بلغهُ ان

١) مجموعة الآباء اللاتين لمين (٢٠ : ٥٤٨)

٢) مين (٥٩ : ١٧٠) ٣) مين (٧٧ : ٣٦٩)

٤) بعد انفصال بطريرك السريان وبطريرك القبط المونوفسيتيّين عن الكرسي الروماني ظلّت طائفة كبيرة في كلتا الحاضرتين اعني في الاسكندريّة وانطاكية ثابتة في المتقد الارثذكسي يراجع بطاركتها بطريرك رومية جرياً على تقاليد أسلافهم وعُرفوا منذ إذٍ ببطاركة الملكيّين

انسطاس نُصب بطريركاً للاسكندرية (٦٠٣–٦١٤) شخص اليه في خمسة من اساقفته وزمرة من قسوسه ورهبانه وحمل اليه التحف والهدايا فخرج البطريرك الاسكندري ماشياً في اكليرسه وتلقّاه بالتسبيح والفرح وحلّ البطريرك واصحابه ضيوفاً كراماً عنده مدة اربعين يوماً. وكتب البطريركان كلاهما صكاً صرّحا فيه باتفاق البطريركيتين في المعتقد المنوفستي وامضاه اوّلاً انسطاس واساقفته سنة ٦١٦ على هذه الصورة: « انسطاس برحمة الله اسقف الاسكندرية أُوافق على هذا الصكّ واثبّت هذه التعاليم... واعتبركم يا اثناسيوس رئيس الكرسي الانطاكيّ أخاً روحياً وأُقسم لكم بيمين الشركة والاتحاد في الرأي... واختم هذا الصكّ انا واساقفتي » . وقد كتب نصّ هذا الصكّ بالسريانية ميخائيلُ الكبير في تاريخه (ص ٤٠٠) وعلى هذا المنوال تمّ الاتحاد والاتفاق ما بين الكرسيّين واقام البطريركان واكليروسهما الصلاة معاً وتناولوا الاسرار المقدّسة وخطب فيهم البطريرك اثناسيوس خطبةً بليغة. ولمّا توفي انسطاس وولي بعده اندرونيقس اوفد الى البطريرك اثناسيوس المذكور رسالةً قرّر فيها الاتحاد ما بينها

وبعد اندرونيقس تولّى بطريركية الاسكندرية بنيامين الذي عاهد المسلمين واتّفق معهم وسلّمهم الاسكندرية وبلاد مصر سنة ٦٤٠ فأكرموه واحسنوا اليه وأفازوه بامانيه. قال المقريزي (في الخطط ٢: ٤٩٢):

« ان ارض مصر لمّا دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونةً بالنصارى وهم على قسمين متباينَين في اجناسهم وعقائدهم احدُهما اهل الدولة وكلّهم روم... وعدّتهم تزيد على ثلاثمائة الف روميّ. والقسم الآخر عامّة اهل مصر ويقال لهم القبط وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميّز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي... وكلّهم يعاقبة. فنهم كتّاب المملكة ومنهم التجّار والباعة ومنهم الاساقفة والقسوس ونحوهم ... ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدّاً... ثم صار القبط عوناً للمسلمين على الروم... وكتب عمر لبنيامين... اماناً في سنة عشرين (٦٤٣م) ... . فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر ودياراتها كلّها وانفردوا بها دون الملكيّة »

فاضطرّ قورس بطريرك الملكيّين ان ينهزم الى القسطنطينيّة وتضعضع امر الملكيّين في الاسكندرية ، ولم يبقَ منهم سوى طائفة نزرة في القرى والضياع التي على شاطئ النيل (١ واستلى المقريزي (ص ٤٩٣) قوله بقوله :

١) ميخائيل الكبير ص٤٢٣ وتاريخا الرهاوي (ص١٦١) وابن العبري المدني (ص ١٠٣)

« من عهد عمر بن الخطّاب (٦٣٤-٦٤٤) الى خلافة هشام بن عبد الملك (+ ٧٤٣) غلب اليعاقبة على كنائس مصر . . أمّا الملكيّة فان ملك الروم لاون اقام قسيا (قسما) بطرك الملكيّة بالاسكندرية في سنة ١٠٧هـ (٧٢٥م) فمضى ومعهُ هديّة الى هشام . . . فكتب لهُ بردّ كنائس الملكيّة اليهم فاخذ من اليعاقبة كنيسة البشارة. وكان الملكيّة اقاموا سبعًا وسبعين سنة بغير بطرك في مصر من عهد عمر بن الخطّاب الى هشام . . . وفي ايام المأمون (٨١٣ – ٨٣٣) مضى بطرك الملكيّة الى بغداد فكتب له الخليفة بردّ كنائس الملكيّة التي تغلّب عليها اليعاقبة بمصر فاستردّها منهم واقام في بطركيّة الملكيّة اربعين سنة ومات »

وقال ابن العميد (ص ٤٥ من نسختنا في الشرفة) :

« اخذت الملكيّة جميع الكنائس التي كانت لليعقوبية ومذ ذلك الوقت صار كرسي البطاركة اليعاقبة في دير ابو مقار »

امّا بطريركيّة الاقباط وبطريركيّة السريان اليعقوبيّتان او المنوفستيّتان فظلّتا ثابتتين على عهودهما فان ايليا الاول بطريرك السريان (+ ٧٢٣) البطريرك اسكندر الثاني (+ ٧٢٦) في الاتحاد صحبة استغانس احد اساقفته فقبله بفرح وكتب الى البطريرك الانطاكي جوابًا (١

ولما تولّى بطريركيّة السريان ديونوسيوس التّلمحري (٨١٨-٨٣٧) أمر محمّد اخو الامير عبدالله صاحب مصر سنة ٨٢٥ بتقويض كنائس السريان في الرها فارتحل البطريرك ديونوسيوس الى القطر المصري يصحبه شقيقه ثاودسيوس مطران الرها ليدافع عن الكنائس المشار اليها. ولما وصل البطريرك الى مصر خرج النصارى وعددهم زهاء ثلاث ربوات وحيّوه بالسلام واحتفى به يعقوب بطريرك الاسكندريّة واساقفتهُ ورحّبوا به مُدّعين «انهم لم يشاهدوا بطريركًا سريانيًّا حلّ في ارض مصر منذ عهد سويرا (+ ٥٣٨) »وفاتهم ما جرى للبطريركين اثناسيوس الجمّال وانسطاس من الاتفاق لدن مواجهتها في الاسكندريّة كما ذكرنا آنفًا فيُستدَلّ من ذلك ان القبط يومئذٍ كانوا جاهلين تواريخ أجدادهم غير خبيرين باحوالهم وأخبارهم

وبعد هذا قصد البطريرك ديونوسيوس الاميرَ عبدالله بن طاهر صاحب مصر فطفق الامير يعاتبه عتابًا حبيًّا ويقول : كان الاولى لك ان تكتفي بارسال كتاب منك الينا تورد فيه مسألتك فكنا نجيب الى طلبتك . قال له البطريرك : «ان ثاودسيوس

١) تاريخ القبط (ص ٤١٢)

مطران الرها قد قدم اليكم ليحتج على محمد عاملكم في الرها لانه أمر بتقويض كنائسنا أمّا انا فقد أقبلت الى مصر لأتعهّد أمور الجماعة على ان شؤون الطائفة باسرها منوطة بي" . فما كان من الامير عبدالله الّا أن كتب صكًّا يأمر بترميم ما قُوِّض واوفد الى عامله يأمره بذلك ويحرّضه ويحضّه على مسايرة النصارى ومجاملتهم .

فاخذ البطريرك تلك التوصية شاكرًا للامير فضلهُ وحفاوتهُ وعاد الى ابرشيّته مسرورًا ظافرًا واستلم الكنائس المغصوبة . ولما كانت السنة ٨٣١ استصحبهُ الخليفة المأمون الى دمشق ومصر وكأنه ان يصالح النصارى الاقباط . فوصل البطريرك ديونوسيوس الى مصر فخرج يوسف بطريرك القبط الى الفسطاط واستقبله ومضى به الى البشمور حيث كان النزاع والاختلاف قائمًا على قدم وساق . فخرج الوجهاء لاستقبالهما وجعل البطريرك ديونوسيوس ينصح لهم ويرشدهم حتى أطاعوا صاغرين . وجعل يوبخ الاقليرس خاصةً على بعض عوائد ذميمة سرَت فيما بينهم اخصُّها انهم كانوا يبالغون في طمعهم بمال الشعب فيجمعونهُ من ايّ وجهٍ كان ويؤدّونه للبطريرك لينصبهم اساقفة او مطارنة اذ كان يتعذر على ايّ كان ان يرتسم مطرانًا قبل دفعهِ للبطريرك مائتَيْ ليرة او ثلاثمائة ليرة ذهبًا

وكتب ديونوسيوس البطريرك فصولًا ضافية وصف فيها ما شاهدهُ في وادي النيل من الغرائب والعجائب ولاسيما أهرامها العريقة في القدم ومن جملة ذلك قوله : "ان هذه الاهرام مبنيَّة بحجار ضخمة كالرخام تحاكي حجار بعلبك المثلّثة طولُ الحجر الواحد زهاء ستين ذراعًا في ستّ اذرع عرضًا في مثلها سُمكًا وعلى راس الهرم كرسي من حجر طوله عشر اذرع فيكون علوّ الهرم كله سبعين ذراعًا (١ منقوشة فوقه من علوّه الى اسفله صور أصنام وكتابات حبريّة تتعذر قراءتها على علماء عصرنا (٢ "

وواصل بطاركة السريان والاقباط المراسلات حتى القرن الثاني عشر . فان يوحنا الرابع (٧٧٦—٧٩٩) كتب الى جرجس بطريرك انطاكية (٧٥٨—٧٩٠) يجدّد فيها

---

١) ان الاهرام الكبيرة ثلاثة وهي في الجيزة اكبرها هرم شيوبس طولهُ وعرضهُ الآن ٧٤٦ قدمًا وعلوّه ٤٥٠ قدمًا والثاني طوله وعرضه ٦٩٠ قدمًا وعلوه ٤٤٦ قدمًا . أمّا الثالث فهو اصغرها . أمّا ابو الهول فطوله ١٩٠ قدمًا . ويوجد غيرها من الاهرام الا ان ما ذكرناهُ منها اعظم شأنًا . امّا الكتابات التي رُقمت عليها فقد فكّها العلّامة الفرنسوي شمبوليون منذ سنة سنة بيّنف

٢) اطلب تاريخ الرهاوي (ف ٢٠٨ : ٢٢٥

اتحاده معه في الامانة وكان البطريرك جرجس قد ألقي في السجن وجلس عوضه ابن احدى حظايا الخليفة ... ولما أطلق من السجن كتب الجواب الى البطريرك الاسكندري (١. وكتب يوحنا الخامس بطريرك انطاكية رسالة حبيّة الى يوسف بطريرك الاسكندرية وارسلها مع مطراني حمص وحماة فتلقاها بسرور وقرأها على مسامع الشعب وكتب لهُ جوابها

وقد ورد في مخطوط مكتبة كمبردج (عدد ٣٢٨٨) وهو كتاب اعتراف الاباء (ص ١٣١) نتف من رسائل عديدة تداولها بطاركة الاسكندرية وانطاكية. منها رسالة الانبا يوحنا بطريرك الاسكندرية الى قرياقس بطريرك السريان الانطاكي (+٨١٧). ورسالة قرياقس المذكور الى الانبا مرقس بطريرك الاسكندرية. ورسالة ثاودوسيوس بطريرك السريان(+٨٦٥) الى الانبا ميخائيل بطريرك الاسكندرية. ورسالة ديونوسيوس بطريرك انطاكية (+ ٩٠٩) الى الانبا الاسكندريّة. ورسالة غبريال بطريرك الاسكندريّة الى يوحنا (السادس) بطريرك انطاكية (+ ٩٢٢) ورسالة الانبا قزمان الى باسيليوس الاوّل (+ ٩٣٥) وجوابها. ورسالة الانبا مقار بطريرك الاسكندريّة الى يوحنا السابع بطريرك انطاكية (+٩٥٣). ورسالة ديونوسيوس الثالث (+ ٩٦١) الى مينا بطريرك الاسكندرية. ورسالة مينا المذكورة الى يوحنا التاسع (+٩٨٦) وجوابها. ورسالة يوحنا المذكور الى مينا البطريرك وفيها يستشيره في الذهاب الى القسطنطينيّة للنظر في مسائل الدين. ورسالة فيلتاوس بطريرك الاسكندريّة الى ديونوسيوس الرابع (+ ١٠٤٢) والى اثناسيوس السادس (+ ١٠٦٤) وجوابها. ورسالة يوحنا الثاني عشر (+ ١٠٧٣) الى زخاريس بطريرك الاسكندرية وجوابها. ورسالة الانبا سانوتيوس بطريرك الاسكندريّة ومصر الى ديونوسيوس الخامس (+١٠٧٩). ورسالة الانبا خرسطودولس الى يوحنا الرابع عشر (+ ١٠٨٧)

ولما ارتقى ميخائيل الكبير الى الكرسي الانطاكي على السريان سنة ١١٦٧ ارسل صورة ايمانه الى بطريرك الاسكندريّة طبقاً لعادة اسلافه. ذلك كلهُ برهان مقنع على اتحاد الكرسيين وعلى اتفاق كلمتها في الرأي والمعتقد (لهُ صلة)

١) تاريخ القبط (ص ٦٣٦)

مطبوعات شرقية جديدة

PUBLICATIONS PIERRE TÉQUI. Paris, rue Bonaparte, 82. S'adresser à Beyrouth à la Librairie Chéhab « le Foyer»

I Mgr Laveille et l'abbé C. Collin: Gabriel Deshayes et ses familles religieuses. *in-8º, pp.* 580, *Prix* 12 *fs*

سيرة جبرئيل ديزهاي وجمعيّاتهِ الرهبانيّة

هذه سيرة احد كهنة فرنسة الذي توفي منذ نحو ٨٠ سنةً فأدّى لدينه ولوطنه خدماً متعدّدة سواء كان باعمالهِ الشخصيّة ام بالجمعيّات الاربع التي انشأها فادارها بغيرةٍ عجيبة. فانّ من يطالع هذا الكتاب يأخذه الدهش لدى نظرهِ رجلًا واحدًا امكنهُ القيام بكل هذه المشروعات التي دبّرها بحكمة وثبّت اركانها حتى انها لا تزال بعد موتهِ زاهرةً نامية. فشكرًا للسيّد لافايل وللكاهن كولين اللذين خلّدا بهذا الكتاب ذكر ذاك الرجل العظيم والكاهن القديس

II M. R. Jeuné: Une Mystique dominicaine la Vénérable Mère Agnès de Langeac, *in-12, Prix* 6 fs

الراهبة المكرّمة اغنس دي لنجاك

هذه زهرة اخرى نمت في حديقة كنيسة فرنسة في القرن السابع عشر جعلت همّها العنايةَ بتقديس الكهنة وساعدت المسيو اوليه (Olier) منشئ جمعيّة سان سولبيس في تهذيب الاكليروس. فادراكاً لهذه الغاية قدّمت نفسها وراهبات ديرها «لنجاك» كضحايا لله كي ينلن منهُ تعالى بصلواتهنَّ واصوامهن وتقشّفاتهنَّ تلك النعمة الجزيلة التي رقّت الاكليروس الفرنسوي الى اوج الكمال. وفي تفاصيل هذا الكتاب ما يكشف القناع عن فضائل تلك الرئيسة وسموّ قداستها كما انهُ يدلّ على عظمة الدعوة الاكليريكيّة وشرفها ل. ش

III R. P. Ed. Hugon: L'Apostolat Missionnaire de la France. I *vol. in-12, pp. XXV-310, Prix* 7 *fs*

روح الرسالة في فرنسة

كلّنا يعلم ما لفرنسة من الفضل في خدمة الارساليّات في العالم وما تتكلّفهُ لنشر